المشرق

الظرّان او الطور الحجري في فينيقية [1]

(للاب غدفريد زُموفن مدرّس الطبيعيات والكيميا في كلية القديس يوسف)

ليس الفينيقيّون اول من توطّن فينيقية [2] وانما سبقهم في سكنى هذه البلاد قبائل شتّى كانت تعيش من صيدها وتأوي الى المغاور. ولم يكن لهذه الطوائف الاوليّة خبرة تمكنها من استخدام المعادن لحوائجها وانما كانت تستخرج الصوّان من جبل لبنان فتجعله مادّة لبادئ صناعتها. وقد ابقت لنا هذه العشائر آثارًا تختلف عن آثار من اتى بعدها . وليست هذه البقايا نقوشًا ودُمى او آنية مزينة بالرسوم وتُحَف زجاجيّة او أساور من الشَّبَه والذهب بل هي قِطَع من الظرّان والصوّان المنحوت او عظام خرّبتها ايدي الصنّاع او خزف لم يُحكَم اتقانهُ او بقايا ادوات الطبخ او رِمَم موتى تلك الشعوب البائدة

وعليهِ فان لفينيقية التي توغّل تاريخها في القِدَم طورًا حجريًا كما كان لمصر ولاوربا الوسطى والشماليّة تشهد بذلك الآثار العديدة التي نعثر عليها في جميع السواحل الفينيقية

ولسوء الطالع قد افنت الأيام كثيرًا من هذه المُستودَعات السابقة للقرون التاريخية ولم تصل الينا تامّةً سالمةً. فكم من المغاور التي اتخذها القوم الأُوَل منازل فسكنوها دهرًا طويلًا قد اضحت بعدئذٍ معابد يُحَجّ اليها او مدافن للاموات لوقعها بجوار المدن الفينيقية فاضمحلّت لذلك رسومها القديمة . وهذا بخلاف ما بَعُد منها عن المدن الساحلية وكانت مواقعها في الوديان فتراها صانت كنوزها المكنونة واذا اكتُشفت اطلعتنا على امور سكّان هذه البلاد الاوّلين وأنبأتنا عن احوالهم وترقّيهم في سُبُل الفنون والصنائع

والحق يقال ان البحث عن طور الظرّان في فينيقية لم يهتمّ بهِ الّا قليل من العلماء.

---

١) وردت هذه المقالة في غاية السنة السابقة في المجلّد السابع من مجلّة الانتروبولوجية

٢) يحدّ فينيقية عكا جنوبًا وطرطوس شمالًا والبحر المتوسط غربًا وأعالي لبنان شرقًا

فانّ بعض الصوّان المنحوت او العظام المكسّرة المدفونة في المغاور والمركوزة في رُكَم متحجرة ما كانت لتستلفت انظار السافرين . امّا علماء الجيولوجيا فغاية ما كانوا يقصدونهُ في ابحاثهم عن فينيقية ان يقفوا على آثار اوَّل شعوبها المتمدّنة غير مبالين باعمال القبائل السابقة لهذا العهد مع انها جديرة بالاعتبار

يُقسم طور الظرّان في فينيقية الى زمنين احدهما اقدم عهدًا وهو زمن الحجر المنحوت (paléolithique) والآخر احدث وهو زمن الحجر المصقول (néolithique) . وسنفرد لكليهما مقالة مخصوصة

طور الظرّان الاقدم

انّنا ننظم في سلك هذا الطور الاوَّل تلك المحطّات او معامل الحجارة التي وُجد فيها الصوّان المنحوت دون المصقول. ومن سمات هذا الطور عدم وجود آثار الخزف فيهِ. فحيثما اكتشفنا هذا الشكل من الصوّان لم نعثر على شيء من القطع الخزفيــة كأنَّ اهل تلك الاعصار البعيدة لم يكونوا ليقفوا على صناعة الفخّارين

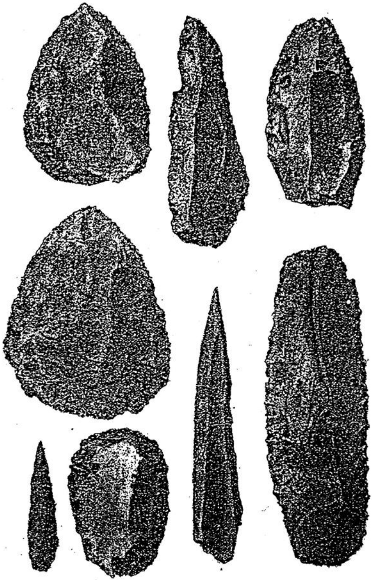
امّا مصانع الصوّان المنحوت المعروفة حتى اليوم فسبعة وهي : عَدلون . ونهر عتيّة . ونهر ابرهيم . ونهر الجوز . وانطلياس . ونهر بيروت . وطرابلس وسنذكرها على ترتيبها

١ محطّة عدلون

عَدلون ضيعــة يسكنها قوم من المتاولة موقعها بين صور وصيدا وهي في مُنتصف الطريق بينهما وهي على منحدر الجبل تبعــد عن البحر نحو ٢٠٠ متر. ففي اسفل القرية مدفن قديم عليه مدار الكلام عند علماء العاديّات وهو موضوع بحثنا هذا

ففي لِحف الجبل تنتصب امامك صخور مرتفعة كجدران يبلغ طولها نحو ١٠٠٠ او ١٢٠٠ متر وعلوُّها بين ١٠ امتار و ٣٠ مترًا وامامها ينبسط السهل من سفحها الى البحر

ففي مُرتقى هذه الصخور المنحوتة قد حُفرت مدافن عديدة يتخلّلها ثلاث مغاور سكن اثنتين منها البشرُ الاوّلون. وليس في هذا الامر مِراء، كما تشهد عليه قِطعٌ كثيرة من ادواتهم بقيت الى يومنا لاصقةً بالجدران كأنها رُصّعت فيها ترصيعًا محكمًا. فربّما وجدتَ في الحائط رُكَمًا مرصوصةً تتركّب من شظايا العظام وأسنان الحيوان وفلَق الصوّان



وجُرَز الفحم. وعلوّ هذه البقايا فوق الحضيض يختلف بين متر ونصف ومترين. فيؤخذ من هذه المقادير ، اكان اولًا لهذه الطبقات السابقة للاعصار التاريخيّة من السُّمك

امّا مُستودَع هذه الآثار القديمة فقد خربهُ من تولّى البلاد بعد القبائل الأوّليّة . ولعلّ الفينيقيّين هم الذين ابادوه ليتّيهيّوا في المغارر معابد لعشتاروت . امّا نحن فقد سبرنا الموضع مرّتين وبالغنا في الحفر فلم نجد لهذا المستودَع من اثرٍ باقٍ

وما بين المغارتين الطبيعيّتين مسافة مائتي متر فيها شظايا من العظام يلصق بها قطع فحم وصوّان محكم النحت. وهي كثيرة لاسيّما في الفضاء الواقع بين مداخل المقابر ويُصعد الى السراديب العليا بمراقٍ نُحتت الأولى منها في الطبقة السابقة لزمن التاريخ . وهذه الطبقة قد اضحت صَلدة جدًّا لا يكاد يعمل فيها ضربُ الحديد فيتكسّر الصوّان بها ولا ينفصل . وقد جمعنا من بين صدوع الصخر وتخاريبه عدّة من الظرّار

وعند مدخل محطّة عدلون غير بعيد عن الطريق المؤدّي الى الضيعة مجالٌ يبلغ خمسين مترًا مربّعًا احدق به الصخر ساترًا لهُ . ففي هذا الفضاء نحو شرقيّه رصيف من الصخر قُطع عموديًّا وفي لحنه مغارة وطيئة منخفضة كانت ارضها مفروشةً بقطع من الصوّان فقدت اشكالها . فحاولنا الحفر أمام هذا المدخل فظفرنا ببعض المرغوب . ووجدنا انّ الطبقة السابقة للاعصار التاريخيّة عبارة عن ركيزة متكوّنة من ارض كلسية تضربُ الى الحمرة مع حصًى خفيفة الاجرام محدَّدة الاطراف وبينها كثير من شظايا العظام لا يتيسّر معرفتها ومن جملتها اسنان بعض الحيوانات كالبقر الوحشي والظبي والوَعل

وادوات الصوّان عديدة وافرة في هذه المحطّة لا يكاد يخلو منها مكان فتجدها في رُكمة العظام السابق ذكرها وفي منحدر الجبل والحقول الممتدّة بإحف الصخور. وأحسن الأمثلة التي عثرنا عليها قد وجدناها في الفضاء المنوَّه به آنفًا . وهي قِطَع مطرقة الرؤوس مُثلّثها نُحت بعضها على الوجهين وكلّها على شكل الامثلة المعروفة عند علماء الجيولوجيا بالأمثلة الشيلية (١ والبعض منها لم يُنحت سوى على وجهٍ واحد وهذا الوجه محدّب كثير الحروف لسبب نحته . امّا الوجه الآخر المعروف بوجه القَطْع فهو مسطّح مع تقبيب خفيف يُقال لهُ حَدَبة القَطع (٢ . وهذه من صنف الامثلة المعروفة عند العلماء

١) دُعيت بذلك لانّ العلماء وجدوها اولًا في جوار مدينة شيل (Chelles) بفرنسا

٢) هذه الحدبة ناتجة من ضربة المطرقة على الصوّان اذا حاول القاطع ان يقطعها

بالموستريّة (١ (انظر الشكل الاوّل في الصفحة ٩٩)

واكثر ما هنالك من الادوات الجارف وهي قِطَع من الصوَّان نُحت جانبها الاكبر نحتًا أُحكم تارةً وأُهمِل اخرى احكامهُ. والاطراف الأُخر لم تُمَسّ. امّا الحاكّ فمزيزة الوجود ولا اثر البتَّة للشفرات الرقيقة المستدقّة. هذا الى بقايا كثيرة من الصوَّان المكسَّر وهي أَولى ان تُعدّ من نفاية عمل الصناعة

٢ مصنع عُقبيَّة

عُقبيَّة جدول ينصبّ في البحر المتوسّط في شمالي شرقي عين القنطرة . وبالقرب منهُ سهل ينعطف من لحف الجبل الى الصخور المشرفة على البحر التي فوقها اخربة برج الحضر

فالطبقة المنبثّة على آثار البشر الاولين تتكوَّن من ارض سوداء قليلة اللزوج يتناقص سُمكها فيرقّ كثيرًا عند صخور الشاطئ . والسهل مفروش بكسر الظرّان المنحوت واكثرها ضخمٌ ثقيل . فتراها منتشرة في الطرق والحقول وخصوصًا في المجاري التي تحتفرها سيول الامطار . فاذا اتى فصل الصيف ترى الارض تتشقّق لشدَّة الحرارة وتتغلّل الى عمق خمسين او ثمانين سنتمترًا فتبدو حروف الصوَّان من تلك الصدوع انواعًا . وسكّة الفلاحة تكشف منها قسمًا فتستخرجها الى وجه الارض

واكثر هذه الظرّان قد اصابها بعض التغيير ويعلوها شبه صدأٍ خفيف ضارب الى الحمرة . ومنها ما التصق عليها نُحاتة الصوَّان الذي قُطعت منهُ

وهنالك عدَّة قطع من الصوَّان الصافي المعروف بالكوارتز (quartz) الموشور الشكل يُرد وجهها الاّ ان هذه القطع نُقِلَت من محلّ آخر اذ لا اثر للصوَّان في هذه المحلّة وقد اقتلعها مقتلعوها من صخور يدخل في تركيبها الطباشير والحوّارى . والبعض منها يتألف من اصداف صغيرة عدَسيَّة الشكل تلاحمت ببعضها

وممَّا يُذكر من الادوات الموجودة في هذه المحلّة بعض اطراف مسنَّنة مرجعها الى الشالين الشيليّ والموستريّ ثمّ بضعة مجارف وشفرات شبيهة بالسكاكين . ووجوهُ الأدوات تجانس كلّ المجانسة ما ذكرنا عن ادوات عدلون

ويغلب على ظننا انهُ كان في هذا الموضع مَصنع للآلات . ترجح ذلك لخلوّ المحلّ من

---

١) نسبة الى مدينة بفرنسا تدعى موستيار (Moustier) حيث وُجدت هذه الظِّرار اوّل مرَّة

السكّان ولا فيه من وفرة الكسر مع وجود امّهات الاحجار وادوات اشغال اخذ بها اصحابها ولم يفرغوا من عملها

٣ محطّة نهر ابراهيم

ان مغاور نهر ابراهيم كانت سابقاً من مساكن البشر الاولين في فينيقية . موقعها بجوار مصبّ نهر ابراهيم في البحر على طريق بيروت الى جُبَيل او بيبلوس القديمة . ولا شكّ انها لم تخفَ على المسافرين لكنّي لا اعرف احدًا اورد ذكرها . وهي على سِيف البحر تعلو سطحهُ ثمانية امتار

فالاولى من هذه المغاور تحتوي فدرةً كبيرة من العظام المرصوصة تشبه بتقطيعها المقالع الفينيقية . ولا يبعد ان قدماء الجبيليين اتّخذوا كحجارة لبنائهم هذه الفِدَر وهي مركّبة كما سبق من شظايا العظام والصوّان المنحوت التصقت فصارت اصلد من الصخور الكلسيّة الطباشيرية

والمغارة الثانية اجدر بالالتفات لانهُ بقي فيها سالمًا قسم من الطبقة السابقة لزمن التاريخ . فطالما سكن القوم الاوّلون هذه المغارة وكان بينها وبين المغارة الثالثة الوارد ذكرها منفذ يجمع بينهما . فلمّا خلت منهم سقط من سقفها قسم كبير ففصل بينهما ولم تزل الطبقة القديمة سالمةً تحت الردم . وهي عبارة عن ارض محمرّة خزفيّة يدخلها شظايا عظام واسنان مع عدد من الظرّان المنحوتة او المكسّرة . ومطارق من الحجر البركاني يختلط بها رماد وفحم فتلك آثار الموقد القديم

امّا الثالثة فهي اشبهُ بالدهاليز منها بالمغارة ومدخلاها في طرفيها متّسعان وطولها ١١ مترًا في ٤ او ٥ امتار عرضاً . وحضيضها يتركّب من شظايا عظام مجبولة مترصّصة لا يُعرف عُمقها . وقد ميّزنا في قرار الارض فقرات من عظام بعض الحيوانات المجترّة الكبيرة الاجرام واسنانها وكسر من فكوكها . وفي وسطها شغرات كبيرة من الظرّان

ويرى الداخل عن يساره عددًا وافرًا من الاصداف البحريّة المكسّرة وهي قد التحمت بأصل الجدار . منها انواع من البطليسوس وتوتيا البحر ممّا كان يتنعم البشر الاوّلون باكلهِ

ولا يسعنا تعديد كل اشكال العظام . وانّما الاسنان والفكوك هي للبقر الوحشي (bison priscus) وللمعز الاصلي (capra primigenia) وللأيل ما بين النهرين (cervus mesopotamicus) وللخنزير الوحشيّ (sus scrofa) .

وكسر الصوّان ارقّ واخفّ من كسر عدلون لكنها اضخم منها في انطلياس . ولم يبقَ هنا اثرٌ للامثلة الشيلية امّا امثلة الصنف الموستري فترى لها بقايا كثيرة (انظر الشكل ٢ ص ٩٦)

وامّا الادوات فهي متوسطة في الطول لا تتجاوز اطولُ الشفرات عشرةَ سنتيترات ولا يكاد اصغر الاسنّة يبلغ اربعة سنتيترات وما بين هذين الحدّين شفرات متفاوتة في الطول. ولهذه الرؤوس المسنّنة اشكال مختلفة منها مثلَّثة ومنها بيضويّة وبعضها على هيئة السكاكين وبعضها تنتهي الى نقطة (انظر الشكل ٣) ولا يندر وجود الجارف بينها. وأمّا الحاكُّ فقليلة . هذا الى عدد لا يحصى من الشفرات المحدّدة التي بادت صورتها

٦ محطة نهر الجوز

نهر الجوز مسيلُ ماء ينبع في قرية تنّورين ثم يجري في وادٍ عميق ضيّق وينصب في البحر شمالي البترون . ومنزل الانسان القديم هنالك في غور الوادي على الطريق المؤدّية من كفرحي الى كفتين في علوّ ٢٠٠ متر فوق سطح البحر . وليس هذا المنزل مغارةً بل رواقًا من الصخر مفتوح الجوانب بيد انَّهُ لم يقِ الصيَّاد الاوَّل من عصف الرياح وتزول الامطار ولا شكّ انّ البشر الاوّلين كانوا يتّقون تقلّبات الهواء بسُترٍ من اغصان الشجر كانوا يشيدونها فيلجأون اليها كما تفعل قبائل الهنود الهمجية في اميركا

ففي الجهة العليا من هذه المحطة في شرقيها يلصق رُكام من حصىً ذات انواع واحجام مختلفة ونظن ان هذا الركام كان ممتدًّا على شكل سقف . وقد ارتأى بعض المسافرين انَّهُ بقية حجارة تكوَّمت في لِحف سطح من جليد . فانْ صحّ هذا الرأي يلزم منهُ كون الانسان وُجد بعد زمن الجليد لان عهد التحام الصوّان مع العظام والفحم وقع بعد وجود الجليد

والرواق المذكور لا يمتدّ اكثر من مترين او ثلاثة امتار . وبازاء الغَور باحةٌ طولها ٢٣ مترًا في ٧ امتار الى ١٠ عرضًا . وقرار الارض هنالك اذا كُشفت الارض النباتية انّما هو صُبرة من العظام المرصوصة بعضها

والى اليسار نصبٌ يشبهُ عمودًا متحجرًا من الماء المتحلّب راكزًا في الارض ومتّصلًا بالرواق الموصوف آنفًا . فبين هذا العمود والجدار الداخلي مسافةٌ ضيّقة مملوّة عظامًا متراكمة فوق بعضها غير مدفونة في التراب . فاذا ما شاهدها الداخل ظنّ لاوَّل وهلة انَّهُ يسهل عليه قلعها واذا ما مسَّها وجدها مجبولة ببعضها قد لحمتها المياه الكلسيّة الراشحة من السقف

وان سرتَ بعد الى يسارك بين حجار ذلك المنحدر والجدار الداخليّ تجد ارضًا بائرة لم

تــها بعد يد الباحثين فعثرنا فيها بعد الحفر على بقايا عظام لا تعدّ كثرة . والاسنان هي الغالبة بينها . وقد تمكنتُ في يوم واحد بمساعدة فاعلين من جمع نيف وخمسمائة سن من الظباء والمعــز البرّي . وهاك قائمة الحيوانات التي وجدنا من بقايا هياكلها : الدبّ والبقر الوحشيّ وصنفان من المعز وثلاثة اصناف من الايل والظبي والخنزير البرّي والسُّلحفاة

واكثر ظرّان هذه المحطة كمدة اللون يعلوها شبه صدإ ضارب الى البياض وربَّما اثَّر فيها التغيير الى ثلاثة ميلمترات عمقًا وقد وصل في بعضها الى القلب فاضحى الصوّان لذلك هشًّا سريع الكسر . ولم اعثر هنا بين هذه القطع على مطارق او قِدَر حجارة خشنة او امهات وذلك مما يُنبئ ان معمل الصوّان لم يكن في هذه المحطة وانما حُملت اليها الظرّان من مصنع آخر

والقطع التامّة الشغل ليست عزيزة الوجود ولكنَّ كسر الادوات التي افناها الاستعمال او لعب بها الدهر وافرة العدد

والاطراف المسنّنة كثيرة الاشكال منها مثلثة او بيضويّة (انظر الشكل ٤ ص) وهي قليلة ومنها قِطع طويلة ليست بعريضة نُحتت في طول استدارتها نحتًا محكمًا . واكثر الاطراف هي الاسنّة القصيرة وقد أُتقن طرفُها الاعلى اتقانًا حسنًا فنُحت رأسها نحتًا ثانيًا ادقّ بخلاف بقيّة اجزائها

٦ً محطّة انطلياس

انَّ اهمّ محطّات الحجر المنحوت في فينيقية هي ولا حرج المغارة الكبيرة الواقعة في مدخل وادي انطلياس . اجل ان ما استُودع فيها من الآثار السابقة لطور التاريخ لم يبق على حاله تامًّا لكنَّ القسم الاكبر منهُ سالم . وهذه المغارة هي الموضع الوحيد في فينيقيــة الذي بهِ وجدنا عظامًا بشريّة وادوات من العظم مختلطة ببقايا الصناعة الاوّلية . وفيها تراكم هناك من فضلات الاطعمة آثار تفيدنا اكثر مما سواها عن الحيوانات المعاصرة لسكان لبنان الاوّلين

والمغارة واسعة المدخل طولها ٦٠ مترًا نحو جهة الشمال الشرقيّ . ومعدّل عرضها ثانية امتار في نحو ٦ او ٨ امتار علوًّا

وهذه المحطة اوّل من استلفت اليها ابصارَ العلمــاء هِدِنبِرغ عام ١٨٣٣ ثم زارها المسيو فراس سنة ١٨٧٥ ثم داڤسن سنة ١٨٨٤

ولمدخلها عتبة جميلة مؤلفة من كسر عظام وقطع صوّان منحوت وبقايا اصداف وفحم

ملتحمة تضمّها مادة كلسيّة محرَّة صلبة . وقد أُصق بجدرانها الداخليـة قطع من مجموع العظام المتجدّدة

وطبقة الآثار القديمة انما هي في صدر المنارة . والارض المتكوّنة من هذه الآثار قد وجدتُها على ما تراءى لي سالة . وهي تتركب في جميع اقسامها من تراب اسود يميل الى الحمرة يخلطهُ رماد وفحم وفي خلاله كثير من العظام المتكسرة والصوّان المنحوت وبينها حجارة كلسيّة محدّدة الرؤوس قد سقطت من السقف

ويتعذر تقسيم هذه الطبقة الى اطوار مختلفـة سواء اعتبرنا عظامها او ادواتها لانّ العظام مُلقاةٌ في كلّ جهاتها وكل اعماقها . كما وان الادوات القديمة هي هي من حيث شغلها وشكلها في كل اقسامها ...

ويوجد حوالي المنارة الكبيرة مغاور أُخر كثيرة او مآوٍ تحت صخور في بعضها آثار للبشر الاوّلين . وقد وجدت انّ كل قصب من العظام ذات مُخ قد كُسر او شُقّ فلم ارَ منها قصبة سالة . وكذلك لم اعثر على فكٍّ تامّ كامل . واسلمُ العظام عظام العَقِب والكعوب والاسنان

وبعض قِطَع العظام لم يزل فيها اثر الحجر التي بها كُسِرَت . والبعض قد حُكَّت حكًّا فترى على وجهها خطوطًا تنبئ أنها جُرِّدت عنها لحومها بآلة من الصوّان

وكثير من فقرات العنق مشقوقة لكنها بقيت مرتبطة بسلسلتها الطبيعيّة . وكذلك المفاصل بين المعصم والزند لم تزل ملتحمة بعضها

وهذه بعض الحيوانات التي وقفنا على عظـامها : صنفان من السنّور والدبّ والنمس والثعلب وابن آوى والارنب وبقر الوحش وصنفان من المعز والظبي والوعل والايل والخنزير البرّي والفرس . ومن الطيور الورّ والحمامة والحجل والشاهين . ومن الاصداف بعض انواع البطليموس والتوتيا

امّا عظام الانسان فكثيرة وكانت متفرّقة في المنارة بين عظام حيوانات كُسِرَت للطبخ . وهي مضونةٌ كعظام هذه الحيوانات يعلوها مثلها ترابٌ متحجر . واغلبها مكسّر وعلى بعضها آثار آلات حادّة . وما ادرانا ان لم يكن ذلك اثرًا لوجود آكلي لحم البشر ...

وقد لاحظنا في الاعضاء عند موصلها بالمرافق تقعيرًا كما في عظام اكثر افراد القبائل العائشين في الهمجيّة . هذا وقد جمعنا قسمًا كبيرًا من هيكل جنين عمرهُ بين ٣٦ و ٣٧ اسبوعًا والنوعان من الحيوان اللذان توقّرت بقاياهمـا دون الغير هما ظبي بلاد ما بين النهرين

وعنزة كبيرة دعاها المسيو فراس موقتًا العنزة الاصلية (capra primigenia)

اما قطع الصوّان فهي اكثر من ان تحصى ‧ وهي منتشرة في كل الطبقة كونا ‧ واكثر ما تكون عند الجدران ‧ وادوات الصوّان متوسطة في الطول وهي سالمة تامّة ‧ مرجعها الى احد الانواع الآتية : السكاكين (انظر الشكل ٧ ص ٩٦) والاسنّة والخارز (الشكل ٥) والجارف والحاكّ (الشكل ٦) والمناشير ‧ ونحتها في الغالب محكم ايّ احكام

ووجود المطارق ونفايات العمل وأُمهات الاحجار المقطوعة كلّ ذلك يثبت لنا ان هذا المحلّ كان مصنعًا للادوات

وفضلًا عن الصوّان المنحوت قد جمعنا عظامًا مشغولة يغلب عليها شكل الخارز وهي مقطوعة من وسط العظام الضخمة (انظر الشكل ٨) ‧ وبعضها مستدير على شكل اسطوانة قد تنوّعت على طولها الخطوط وآثار الحكّ بآلة حادّة وذلك دليل على ان شغلها وصقلها انما كانا بقِطَع الصوّان ولو حُكّت لذهب الحكّ بحروفها وخطوطها الناتئة ‧ وقد تُرك في غيرها طرفها الاسفل خشنيًا بلا نحت ‧ وفي كثير منها قد رُقّق وحُدّد احد اطرافها فقط ليس الّا وبقي سائرها على اصله كما كُسر او شُقّ

وقد وجدنا ايضًا ما خلا هذه الخارز اداةً تشبه المصقلة او الإزميل صُنعت من شظيّة قرن أيل ‧ ثم صفيحةً من العظم سمكها ٤ ملّمترات وعرضها ٢٩ ملمترًا في طول ٦٠ احد طرفيها محدّد كالفأس وهي مستقيمة الزوايا والطرف الآخر قد كسر منحرفًا ‧ وقد خُرق بالنحت لا بالثقب

٦ محطّة نهر بيروت

هذه المحطة هي على ضفّة نهر بيروت اليسرى غير بعيدة عن الجسر الحالي ‧ وليس هناك مغارة ولا ما يدلّ على وجودها فيما مضى فهي محطة مكشوفة تحت القبّة الزرقاء ‧ وهي عبارة عن صخر مؤلف من قِطع صوّان منحوتة وكِسَر عظم وفحم يجمعها ملاط من الكلس قويّ بعضهُ مائل الى الحمرة وبعضهُ الى الكمدة ‧ ‧ ‧ وقد كشطت حوادث الجوّ الملاط عن الصوّان ولكنهُ يصعب فصل قِطَعهِ منهُ وكثيرًا ما تتكسّر ويظهر ان الصخرة تمتد الى ما تحت الطبقة النباتية ‧ ولم اتمكن من الحفر والبحث هناك لان في الموضع بعض اشجار من التوت لا غنى عن قلعها واصحاب الاملاك يطلبون فيها ثمنًا فاحشًا

وقد توصّلتُ الى استخراج بقايا اسنان هي اسنان البقر والمعزى التي توفّرت آثارها في

اغلب محطّات الحجر المنحوت بل وفي امكنة الحجر المصقول ايضاً في فينيقية . امّا باقي العظام فهي محطّمة لا يمكن تحديدها. والنار قد عبثت بكثير منها

ولون الصوّان ما بين الاصهب والرماديّ وقد علاهُ الصدأ وهو كثير في الصخر المشار اليهِ وفي الحقل المجاور على شكل شظرات صغيرة افناها الاستعمال او تثلّمت لعَرَضٍ ما

٧ً محطة طرابلس

قد روى كثير من المسافرين انَّ في جوار طرابلس مقاماً سكنهُ البشر الأوَّلون وان فيهِ آثاراً ولم تسنح لي الفرصة بتفقّدهِ. وستزوره ان شاء الله (ستأتي البقيّة)

ابيات زهدية

قالها الخوري نيقولا الصائغ وهي لم تروَ في ديوانهِ

قد وجدنا هذه الابيات في مجموعٍ حسن جاءهُ احد الافاضل من بيت جناب الخواجا باسيل بارد في اوائل هذا العصر. وهي اربعة فقط يدل انها من النوع البديعيّ الذي دعاهُ البعض بالتخيير الكلي وهو ان يأتي الشاعر بقافية يجوز ابدالها بجميع قوافي الابجدية كما ترى في قول الخوري نيقولا وهذه ابياتهُ:

إمَّا تذكَّرتَ ٱلحِمامَ وهَوْلَهُ عَجَباً لِقَلْبِكَ كيفَ لَا (يَتَهيَّأُ)

(فيسوغ بَدل القافية «يتهيَّأُ» باحدى القوافي الآتية من سائر حروف المعجم): يَتَقَلَّبُ. يَتَفَتَّتُ. يَتَحَدَّثُ. يَتَشَنَّجُ. يَتَجَرَّحُ. يَتَسَلَّخُ. يَتَسَهَّدُ. يَتَفَلَّذُ. يَتَنَطَّرُ. يَتَمَيَّزُ. يَتَفَرَّسُ. يَتَحَرَّشُ. يَتَنَغَّصُ. يَتَرَوَّضُ. يَتَفَرَّطُ. يَتَلَفَّظُ. يَتَنَطَّعُ. يَتَفَرَّغُ. يَتَأَسَّفُ. يَتَمَزَّقُ. يَتَحَرَّكُ. يَتَهَوَّلُ. يَتَكَلَّمُ. يَتَحَنَّنُ. يَتَفَوَّهُ. يَذرُ المَلَا

وَإذا تفكَّرتَ ٱلحِسابَ وَقِسْطَهُ عَجَباً لِفِكرِكَ كيفَ لَا (يَتَأَسَّأُ)

(يجوز بدل آخرهِ بقولك): يَتَحَسَّبُ. يَتَشَتَّتُ. يَتَشَبَّثُ. يَتَمَوَّجُ. يَتَرَخْرَحُ. يَتَوَبَّخُ. يَتَبَدَّدُ. يَتَعَوَّذُ. يَتَحَيَّرُ. يَتَحَيَّزُ. يَتَعَرْبَسُ. يَتَشَوَّشُ. يَتَفَحَّصُ. يَتَقَوَّضُ. يَتَخَبَّطُ. يَتَيَقَّظُ. يَتَرَعْزَعُ. يَتَبَلَّغُ. يَتَحَصَّفُ. يَتَفَرَّقُ. يَتَشَبَّكُ. يَتَخَلْخَلُ. يَتَقَسَّمُ. يَتَبَجَّنُ. يَتَشَدَّهُ. يَبغي الكَلَا

وَإذا تحقَّقتَ ٱلجَحيمَ وَحَرَّها عَجَباً لِنفسِكَ كيفَ لَا (تَتَلَظَّأُ)

(فان شئت قُلْ): تَتَلَهَّبُ. تَتَلَفَّتُ. تَتَكَرَّثُ. تَتَوَهَّجُ. تَتَفَرَّحُ. تَتَمَسَّخُ. تَتَوَقَّدُ. تَتَجَلْوَذُ. تَتَقَطَّرُ. تَتَرَجَّزُ. تَتَنَفَّسُ. تَتَوَحَّشُ. تَتَقَمَّصُ. تَتَقَرَّضُ.

تَتَسَخَّطُ . تَتَلَطْلَطُ . تَتَوَجَّعُ . تَتَسَرَّغُ . تَتَخَوَّفُ . تَتَحَرَّقُ . تَتَهَلَّكُ . تَتَسَلْسَلُ .
تَتَضَرَّمُ . تَتَلَبَّنُ . تَتَأَوَّهُ . تَخْشَى وَلَا . . .

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ النَّعِيمَ وَحُسْنَهُ عَجَبًا لِعَقْلِكَ كَيْفَ لَا (يَتَمَلَّأُ)

(لك ان تقول) : يَتَعَجَّبُ . يَتَفَوَّتُ . يَسْتَوْرِثُ . يَتَهَيَّجُ . يَسْتَوْضِحُ . يَسْتَصْرِخُ .
يَتَجَرَّدُ . يَتَلَذَّذُ . يَتَحَيَّرُ . يَتَحَرَّزُ . يَتَوَسْوَسُ . يَتَهَشَّشُ . يَسْتَفْرِصُ . يَتَعَوَّضُ . يَتَنَشَّطُ .
يَتَحَفَّظُ . يَتَمَتَّعُ . يَتَسَوَّغُ . يَتَلَهَّفُ . يَتَشَوَّقُ . يَسْتَدْرِكُ . يَتَمَقَّلُ . يَتَنَعَّمُ . يَسْتَحْسِنُ .
يَتَأَلَّهُ . يَهْوَى المَلَا ل . ش .

استعمال الفطير والخمير

(للاب انطون صالحاني اليسوعي)

(تتمة هذه المقالة)

لقد اشكل قول يوحنا على كثيرين من الآباء والعلماء وحاول المفسرون حلّهُ وتعددت الآراء فيه . فقال بعضهم انَّ اليهود أخَّروا تلك السنة اكل الفصح الى يوم السبت . ولكن لم يُسندوا قولهم هذا الى برهان . وقال آخرون : انَّ اليهود بعد ضم الجليل الى اليهودية ونمو عددهم تعذَّر عليهم ذبح الحُملان كلّها في الهيكل ليلة العيد (١ فانقسموا الى قسمين فكان الجليليون يأكلون الفصح مساء الثالث عشر من نيسان وسائر اليهود من سكان اورشليم واليهودية يأكلونهُ مساء الرابع عشر . لكن رواة هذه العادة لم يثبتوها بشهادات بيّنة

ومما قيل في حلّ المشكل انَّ المسيح لعلمه بموته يوم الجمعة قدَّم اكل الفصح الى مساء الثالث عشر . ولكن هذا الرأي يضادّ قول الانجيليين انَّ المسيح اكل الفصح في اوَّل يوم من الفطير . وقيل ايضاً انَّ اليهود كانوا يأكلون الفصح في ليلتين متواليتين تُحسبان من يوم واحد . اوَّلاً في مساء الثالث عشر حيث كانوا يذبحون الفصح تذكارًا لاجتياز الملاك بيوتهم دون قتل بكورهم . ثانيًا في مساء الرابع عشر تذكارًا لخروجهم من مصر .

---

١) احصى الكهنة في اورشليم على عهد نيرون ملك الرومانيين الذبائح الفصحية فبلغ عددها ٢٥٦٠٠٠ فاذا افترضنا انهُ يجتمع في الاقل عشرة انفس على اكل الحمل الفصحي بلغ عدد اليهود الموجودين في اورشليم ايام العيد ٢,٥٦٠,٠٠٠ ولا نحيد عن الحقيقة اذا قلنا انهُ كان يبلغ ثلاثة ملايين

والقائلون بهذا القول يستشهدون بعادة اليهود في ايامنا . فقد أكَّد لنا بعض العارفين باحوالهم والمطّلعين على امورهم انهم يأكلون الفصح في ليلتين متواليتين لاسيَّما الاتقياء منهم . لكن هذا الرأي يفتقر الى براهين توطّده فضلًا عن انهُ يناقض الكتاب المقدَّس الذي يأمر الاسرائيليين بان ياكلوا الحمَل الفصحي في عشيَّة الرابع عشر وألّا يُبقوا شيئًا منهُ الى الغداة (خروج ١٢ : ١٠) . امَّا عادة اليهود في أيامنا ان ياكلوا الفصح اكثر من مرَّة في ايام العيد فليست بجديثة . وسننظر بايّ معنى يلزم ان نقبلها ونفسّرها

هذه هي اخصّ الآراء المتضاربة في هذه المسألة . ونحن ان سألنا سائل عن رأينا قلنا ان السيّد المسيح اكل الفصح مع جمهور اليهود في اليوم المعيَّن بالناموس مساء الخميس ١٤ نيسان . وجوابنا على الاعتراض المبنيّ على آية يوحنا (١٨ : ٢٨) « لم يدخلوا الى دار الولاية لئلاَّ يتنجَّسوا فيمتنعوا عن اكل الفصح » ان المراد بالفصح هنا لا الحمَل الفصحي بل ذبائح اخرى تسمَّى فصحيَّة لانها كانت تُؤكل في نهار عيد الفصح وفي اليوم التابع لهُ كما يُستدلّ من نصوص عديدة للربّيين نخصّ منهم الربّي حِلّل البابلي الذي اشتهر باورشليم في عهد المسيح (١

ويؤيد ذلك ايضًا الكتاب المقدس فقد ورد في سفر تثنية الاشتراع (١٦ : ٢ و ٣) « اذبح الفصح للرب الهك من الغنم والبقر في الموضع الذي يختارهُ الرب ليحلّ فيهِ اسمهُ . لا تأكل عليهِ خميرًا بل سبعة أيام تأكل عليهِ فطيرًا » (٢ فالكتاب يسمّي ذبائح البقر فصحًا ويأمر ان يؤكل عليهِ الفطير . ولا ريب في انّ اليهود لم يكونوا ياكلون في عشيّة الرابع عشر من الشهر اي في ليلة العيد الاّ الحمَل الفصحي لا البقر . فكان اذًا اكل

١) راجع جمارة اورشليم في الفصح ف ٦ ع ١ و ٧ فان الذبائح الدائمة الاضافية وذبائح رؤوس الاهلَّة وايام الاعياد يسميها الربّي حِلّل ذبائحَ فصحية . راجع ايضًا جمارة بابل في الذبائح ف ١ ع ١

٢) ذكر الكتاب المقدس (الفصل ٣٥ من سفر اخبار الايام الثاني) في معرض كلامه عن الفصح الذي صنعهُ يوشيا الملك . « ولم يكن فصح مثل هذا في اسرائيل منذ ايام صموئيل النبي » انهُ قدّم فيهِ ايضًا بقرٌ . فقدّم يوشيا من مالهِ الخاص ثلاثة آلاف من البقر . ورؤساء بيت الله ثلاثمائة . ورؤساء اللاويين خمسمائة . ثم قال الكتاب الكريم « وفرزوا المحرقة ليعطوا بني الشعب بحسب اقسام بيوت الآباء حتى يقربوا للرب كما كتب في سفر موسى . وهكذا فعلوا بالبقر . وشووا الفصح على النار بحسب الرسم واما الاقداس فطبخوها في القدور والمراجل والطواجن واطافوها بسرعة في كل بني الشعب » (١٢ و ١٣) . وهذا يدلك على انهُ ما عدا ذبائح الحملان كانت ايضًا في فصح يوشيا ذبائح اخرى فصحية من البقر اكلوها في ايَّام العيد

الذبائح الفصحية من البقر والغنم في نهار العيد وعشائهِ وفي اليوم الذي يليه. هذا هو الفصح الذي كان الفريسيون يريدون اكله يوم صُلب المسيح وخافوا ان يمنعهم عنهُ التنجس المسبب عن دخول دار الولاية. فلم يكن اذًا المقصود في كلام يوحنا اكل الحمل الفصحي فانهم كانوا قد تمّموه مساء الخميس

ثم ان يوحنا في كلامه عن اليهود لم يمكنهُ لسبب آخر ان يعني اكل الحمل الفصحي لانهُ منذ ضحوة النهار الى المساء كان لليهود وقت كافٍ ليتطهّروا من النجاسة . اما اكل سائر الذبائح الفصحية في وسط نهار العيد فكانت النجاسة الشرعية تمنع عنهُ ايضًا ولم يكن يسمح ضيق الوقت ان يتطهّروا منها

وليس بأكثر صعوبة الجواب على الاعتراض المستنتج من قول يوحنا ان صلب يسوع كان « يوم التهيئة » ويوم « تهيئة الفصح » . فانّ اليهود كانوا يدعون ليلة السبت « عرب سبت ערב שבת » وليلة العيد « عرب يوم طوب ערב יום טוב » . ثم توسعوا في الاستعمال فاطلقوا لفظة « عرب سبت » على النهار الذي قبل السبت لانهُ في مسائهِ كانت تهيئة السبت حتى صاروا يعنون بها يوم الجمعة . ولعلّ هذا الاستعمال اتّصل من العبرانيين الى السريان والعرب الاقدمين الذين كانوا يسمّون يوم الجمعة « ܥܪܘܒܬܐ » « عَرُوبة » . وعليهِ فيوحنا الانجيلي بقولهِ « يوم التهيئة » اراد يوم الجمعة ليس الّا

ويؤيد ذلك ما ورد في انجيل متى (٢٧ : ٦٢) « وفي الغد الذي بعد التهيئة اجتمع رؤساء الكهنة » . فقولهُ « التهيئة » هنا مرادف ليوم الجمعة فكأنهُ قال « في غد يوم الجمعة » . وكذلك قول يوحنا « يوم التهيئة » مرادفٌ ليوم الجمعة . والنسخة السريانية البسيطة توضح ذلك باوفر جلاء . فقد ورد فيها « ܥܪܘܒܬܐ ܗܘܬ ܕܦܨܚܐ وكان يوم جمعة الفصح » (يوحنا ١٩ : ١٤) . ومثلهُ في لوقا (٢٣ : ٥٤) « ܝܘܡܐ ܕܥܪܘܒܬܐ ܗܘܐ وكان يوم الجمعة » . أفلا ترى كيف انّ ما سمّاه يوحنا « يوم التهيئة » تسمّيه الترجمة السريانية « يوم الجمعة » وما سمّاهُ « تهيئة الفصح » تسمية الترجمة السريانية « يوم جمعة الفصح »

وقول يوحنا « تهيئة الفصح » لا يريد بهِ ان التهيئة كانت استعدادًا للفصح بل ان تلك التهيئة او بعبارة اخرى ذاك يوم الجمعة كان واقعًا في عيد الفصح كما نقول الآن : اثنين الفصح وثلاثاء الفصح واثنين الصيام واثنين العنصرة وهلمّ جرًّا . فينحلّ من ثمّ المشكل المأخوذ من يوحنا . او بالحري جاءت آيتهُ بدليل جديد على انّ العيدَ كان يوم

الجمعة لا يوم السبت وان المسيح اكل الفصح مساء الخميس ليلة العيد كما اكلهُ عامَّة اليهود

اما قول يوحنا انَّ يوم ذاك السبت كان عظيماً فلا صعوبة فيهِ البتَّة لانهُ كان بالحقيقة عظيماً لا لانهُ وقع فيه اول يوم عيد الفصح بل لانهُ من جملة ايام العيد ولانهُ احد اليومين اللذين تُؤكل فيهما الذبائح الفصحية غير الحمل الفصحي ولانَّ فيهِ كان شروع المنجل في الزرع (تثنية الاشتراع ١٦: ٩ وسفر الاخبار ٢٣: ١٥) ولاسباب اخرى لا حاجة الى ذكرها جعلتهُ اعظم من سائر سبوت السنة

هذا ولا بدَّ من التوفيق بين يوحنا وسائر الانجيليين. وقد رأينا ان هؤلاء ذكروا بما لامزيد عليهِ من التصريح والبيان انَّ المسيح اكل الفصح في وقتهِ فقالوا «في اول يوم من الفطير اذ كانوا يذبحون الفصح (مرقس ١٤: ١٢ ومتى ٢٦: ١٧ ولوقا ٢٢: ٧و٨) وانَّ يوحنا نفسه ذكر العشاء الفصحي. وبما اننا اثبتنا لكلامهِ تأويلاً صوابياً وشرحاً مَرضياً يوفّقهُ مع ما قالهُ الانجيليون الآخرون فلو فرض انهُ باقٍ فيهِ شيء من الصعوبة والاشكال فينبغي شرح ما اعتاص منهُ بما سهل في غيره وما اشكل فيهِ بما وضح فيهم. وعليهِ فيجب تفسير آيات يوحنا باقوال سائر الانجيليين. وقد رأينا ان اقوالهم بيّنة متبادرة الى الفهم لا التباس فيها البتَّة وهي شاهدة لنا بان المسيح اكل الفصح في اول يوم من الفطير. لا بل سمعنا المسيح نفسه يُنبئ تلاميذه عن موتهِ في يوم عيد الفصح «تعلمون انهُ بعد يومين يكون الفصح وابن البشر يسلم للصلب» (متى ٢٦: ٢) افيمكن ايراد برهان اقوى واوضح من هذا. وعليهِ فعيد الفصح كان يوم الجمعة الذي فيهِ صلب المسيح. وكان من ثم اكل الحمل الفصحي مساء الخميس .

وهبْ اننا سلمنا بان المسيح لم ياكل الفصح مع عامَّة الشعب اليهودي بل انهُ تقدمهم في اكله إمَّا مع فريق الجليليين او مع تلاميذه فقط. أفَيُستنتج من ذلك انهُ لم ياكله على الفطير. لا لعمرُ الحق. لانَّ عدم مراعاة ظروف الوقت ليس فيهِ من الاهمية كما في مخالفة امر الفطير لما في هذه الوصية من المعاني. فهذا موسى لمَّا وصى باكل الفصح في عشي ١٤ لم يفرض قصاصاً على من يتعدّى هذا الامر. لكنهُ حكم بالموت على من يتجاسر ويخالف وصية الفطير «كلُّ من اكل خميرًا تنقرض تلك النفس من جماعة اسرائيل» (خروج ١٢: ١٩). فقد اعتبر اكل الفصح واكل الفطير بمنزلة واحدة من الاهمية. ولم يكن المسيح ليخالف وصية ذات اهمية هكذا عظيمة وليس في تتميمها كبير عناء ولا صعوبة

فمن كل ما تقدم نستنتج بكل صواب وحق انَّ المسيح سواءٌ أكل الفصح في الليلة المعينة بالشريعة او في الليلة السابقة لم يأكلهُ الاَّ مع الفطير وبالتالي لم يقدّس الاَّ الفطير في رسم سرّ الافخارستية

قد بيّنا بالبراهين السديدة انَّ المسيح رسم سرّ الافخارستية على الفطير فثبت اذن ان الكنيسة الغربيَّة تستعملهُ بكلّ صواب في ذبيحة القداس لانها تقتدي بصنيع المسيح. الاَّ أنّنا لانخشى القول بان حلّ المسالة لا يتوقّف على عمل السيّد ولا على الاقتداء بهِ. لانهُ بتقديسهِ الفطير لم يعيّنهُ ولم يحتم بهِ كمادَّة ضرورية. ولذلك جاز للكنيسة ان تبدلهُ وتستعمل الخمير. ولو فُرض انهُ قدس الخمير لساغ ايضاً للكنيسة ان تغيره وتستعمل الفطير لان المسيح لم يوجب احد النوعين ولان كليهما خبز حقيقي والاختيار وعدمه امر عرَضيّ

قد بقي علينا ايراد السبب الثاني الذي حدا بالكنيسة الغربيَّة على تقدمة الفطير ومنهُ يتّضح ايضاً الفرق الموجود بين الكنيستين الغربيَّة والشرقيَّة

ما من احد يجهل ان الكهنة في اوائل الكنيسة كانوا يقدّسون قسماً من الخبز الذي كان يأتي بهِ المؤمنون من بيوتهم فيقدمونهُ للذبيحة (١ ويثبت هذا الامر شهادات عديدة لا حاجة لايرادها. ذكر تيودور ابو قرَّة اسقف حرَّان في القرن الثامن ان بعض الجهلة كان يستهزئ باحد المسيحيين ويوبخهُ بقوله لهُ «من الطحين الواحد تخبز رغيفين فتأكل احدها في طعامك اليومي ثمَّ تقسم الثاني وتوزّعهُ على الشعب وتقول انهُ جسد يسوع (٢ ». ويخبر يوحنا الشماس في حياة القديس غريغوريوس البابا (ك ٢ ف ٤١) ان امرأة انكرت الايمان بالقربان الطاهر لانها عرفت في القربانة التي ناولها اياها القديس الخبز الذي كانت عجنتهُ وهيأتهُ. فكان اذاً خبز الذبيحة يؤخذ قديماً من الخبز الاعتيادي الذي يقتات بهِ الشعب. وكان الشعب يقدم للذبيحة خميراً او فطيراً على حسب استعماله في طعامه الخمير او

١) وقد نشاهد في ايامنا ما يشبه ذلك. فانهُ ليس بنادر ان يأخذ الكاهن جزءاً من الخبز الخمير البيتي ليقدسهُ في الذبيحة. ونذكر اننا لما برحنا دمشق في السنة الستين بيسين بيروت ونحن في حداثة السنّ اسعدنا الحظ ان نخدم مراراً كاهناً في تقدمة الذبيحة على طقس الخمير. وكانت تلك الايام ايام ضنك وفقر. ولمَّا لم يكن يتيسَّر للكاهن المذكور ان يجيء بخبز التقدمة على الطريقة المألوفة التي تطلبها اللياقة واحترام الالهيَّات كان يعمد الى الخبز الاعتيادي ويتَّخذ منهُ قربانة يقدّسها في الذبيحة الالهية

٢) في مقالته الثانية والعشرين

الفطير فيقدّس الكاهن قسمًا من هذه التقادم في الذبيحة الالهية ويبقي القسم الآخر ليوزَّع على المؤمنين كبركة . ومن هنا نشأ الفرق الموجود في الكنائس . وكان المؤمنون اذا جروا على احدى هاتين الطريقتين لا يرضون ابطالها او ابدالها خصوصًا عند ما كفّ الشعب عن تقديم خبز الذبيحة وأخذ الاكليروس يهيئهُ مع شيء من الاحتفال . فلازموا مذ ذاك طريقة واحدة حسب العادة التي كانت قد شاعت عندهم لكن دون ان يأنفوا من مخالفتها في بعض الاحيان ودون ان يحسبوا هذه المخالفة خطأ اذا ألجأت اليها الظروف وقدّرتها الاحوال

ولا يخفى انّ الشريعة الموسوية لم تبطل الّا شيئًا فشيئًا في الكنائس التي كان معظم اعضائها من اليهود مثل كنيسة اورشليم وسائر كنائس الارض المقدسة . فترى المؤمنين يحضرون الصلاة في الهيكل مع اليهود ويباشرون غير ذلك من اعمال الشريعة القديمة (اعمال ٢: ٤٦ و٣: ١ و٥: ٤٢ و٢١: ٢٦ و٢٢: ١٧) . وعليه فاستعمال الفطير لم يبطل حالاً بعد إنشاء كنيسة المسيح بل دام زمنًا ليس بيسير وبما انّ الذبيحة الالهية كانت تُقدَّم في البيوت كما ذُكر في اعمال الرسل (٢: ٤٦) عن المسيحيين انهم كانوا «يكسرون الخبز في البيوت ويتناولون الطعام بابتهاج وفرح» فلا بدع اذا كانوا يقدّمون في ذبيحة القداس من الخبز الذي اعدّوه لطعامهم لانهُ لا يسعنا القول بانهم كانوا يعدّون نوعين من الخبز الواحد للذبيحة والآخر للطعام وانّما كانوا في ايام الفصح يقدسون الفطير وفي بقية السنة يقدسون الخمير الذي اعتادوا اكلهُ . وقس على ذلك سائر الكنائس فانّ كهنتها كانوا يقدسون ذاك النوع من الخبز الذي كان الشعب تعوّد استعماله في الطعام وتقدمتهُ في الذبيحة

امّا الشعب الروماني فيثبت التاريخ انه ألِف اكل الفطير الى القرن الثالث بعد المسيح (١ فلا غرو اذًا ان الكنيسة اللاتينية ايضًا استعملتهُ في الذبيحة . فان اهل الثروة من الرومانيين المسيحيين كانوا يقدمون الفطير من الخبز بينما كان الفقراء منهم يأتون بالخمير ولما كانت تقادم الاغنياء اوفر والفطير اشدّ نقاوة وبياضًا واقلّ تفتتًا ومن ثمّ أليق بالذبيحة عوّلت الكنيسة خاصةً على استعماله . وشاعت هذه العادة في المغرب ولاسيما في ايطالية

١) ذكر شياميني في مقالته عن الفطير انّ الموسرين من الرومانيين في عهد الجمهورية وفي أيّام دولة الانطونيين كانوا يأكلون الخبز غير المختمر وبه كان يقتات الجنود

حتى انهُ أُبطل في القرون التابعة اكل الفطير في البيوت دوام خدمة الكنيسة على تهيئته يذرون بذلك ان يكرّموا الذبيحة تكريمًا اعظم

امَّا في المشرق فلان استعمال الخمير في الطعام كان اعمَّ عمَّت ايضًا عادة تقدمته واستعماله في الذبيحة ولكن دون النهي عن تقديس الفطير. ولدينا برهان قوي على ما نقول ألا وهو إقرار البطريرك ميخائيل كرولاريوس نفسهِ وهو كما سبق اوَّل من نبَّه الافكار الى مسألة الخمير والفطير واصلى نيران هذا الخصام وحاول تخطئة الكنيسة اللاتينية. فقد قال في رسالة الى بطرس بطريرك انطاكية ما ترجمتهُ حرفيًّا: «اتَّصل بنا ان بطريركي الاسكندرية واورشليم لا يكتفيان بان يقبلا في شركتهما اولئك الذين يستعملون الفطير بل انهما يستعملان هما ايضًا احيانًا في الذبيحة المقدسة الخبز الفطير» (راجع بارونيوس المجلد ١٧ الصفحة ٩٣ في تاريخ سنة ١٠٥٤)

فاقرار البطريرك كرولاريوس هذا لهُ من الاهمية ما لا يُنكر. ومنهُ يتَّضح ان في القرن الحادي عشر كانت بعض الكنائس الشرقية تقدس الخمير او الفطير وتعتبر انهُ يصح ويجوز استعمالها في ذبيحة القداس. ولا شك ان تلك الكنائس قد جرت في عملها وتعليمها بحسب تقليد قديم العهد

واذا تصفحنا كتب آباء الكنيسة الاقدمين وقفنا على بعض شهادات تثبت استعمال الفطير في اوائل الكنيسة. فالقديس يوستينوس الذي عاش في اواسط القرن الثاني للمسيح يقول في محاورته ٤١ ضد تريفون «ان الخبز غير المختمر الذي كانت الشريعة الموسوية الزمت البرص بتقديمه بعد تطهيرهم كان رمزًا الى الافخارستية» فهذه المقابلة تبيّن استعمال الفطير في القداس. وذكر اوريجين في شرحه لانجيل القديس متى (٦:١٢) انهُ كان يُقدم احيانًا على الهياكل خبز مختمر. فقوله «احيانًا» دليل على انهم في القرن الثالث قلما يكون في مصر كانوا يقدمون عادةً خبزًا غير مختمر

والقديس غريغوريوس المنوّر اسقف ارمينية في اواخر القرن الثالث للميلاد ادخل ما بين الارمن كثيرًا من العوائد التي وجدها في الكنائس الشرقية المتاخمة لبلادهِ. ولا يخفى ان الارمن يقدسون الفطير من عهد قديم فلا ريب انهم اقتبلوا هذه العادة من الروم او السريان المجاورين لهم. وعليهِ يكون الروم او السريان قدسوا قديمًا الفطير قلما يكون في بعض كنائسهم. ولو قال معترض ان الارمن اخذوا هذا الطقس عن الكنيسة الرومانية اذ ذهب

على قول بعض المؤرخين القديس غريغوريوس الى رومية بصحبة الملك تيريدات المتنصر فنجيب ان هذا الاعتراض لا يضعضع قوة برهاننا لان اقتداء الارمن بكنيسة رومية دليل على ان استعمال الفطير في الكنيسة الرومانية ليس حديثًا كما عزها بذلك بعضهم بل يرتقي الى اوائل النصرانية

واذا اقتربنا من اواخر القرن الثامن وبحثنا عن عادة الكنيسة اللاتينية في ذلك العصر وجدنا ادلة غير التي ذكرناها تثبت ان استعمال الفطير كان اذ ذاك شائعًا. فالعلّامة الشهير ألكوين الانكليزي الذي استقدمهُ الملك كارلوس الكبير ووكل اليه القاء العلوم في فرنسة يقول في رسالة بعث بها سنة ٧٩٠ الى كهنة كنيسة ليون الفانويين « ان الخبز الذي نقدسهُ جدًّا يلزم ان يكون غاية في النقاوة بدون خمير اي مادةٍ كانت تفسدهُ (١)». وربّان مور رئيس اساقفة ميانس في المانية وأحد تلامذة الكوين يعلّم ايضًا انهُ « في سرّ جسد ودم المسيح يلزم ان نقدّس خبزًا غير مختمر وخمرًا ممزوجةً بماء (٢)» فهذا التصريح يبرهن على استعمال الفطير عمومًا في اواخر القرن الثامن واوائل التاسع قلما يكون في فرنسة والمانية مما يبين ان تقديس الفطير لم ينشأ في الكنيسة اللاتينية بعد انفصال اليونان عنها بل كان متبعًا فيها قبل ميخائيل كرولاريوس وقبل فوتيوس بل كما سبق القول المثبت بالادلة انهُ يرتقي الى اوائل النصرانية وانهُ مطابق لصنيع السيد المسيح

ونختم الكلام بقولنا ان هذا الفرق بين الكنائس في تقديس الخمير او الفطير بما انهُ عرضيّ لا جوهريّ فليس من شأنه ان يبعث ثائر الضغائن ويزرع زؤان النفور بينها لاسيما وانه لا يمسّ العقيدة بشيء. بل الأولى بنا ان نحافظ على الوفاق ونبتهل الى الله ان يجعل الاتحاد كاملًا ويؤلف القلوب ولو اختلفت الطقوس وتباينت العادات تحت لواء ايمان واحد وكنيسة واحدة وراعٍ واحد

---

(1) Panis qui consecratur in corpus absque fermento ullius alterius infectionis debet esse mundissimus (Epist. 69 ad Fratres Lugdun.)

(2) « Ergo panem infermentatum et vinum aquâ mixtum in sacramentum corporis et sanguinis Christi sanctificari oportet » (Lib. 1 Instit. cler. c. 31)

لفظ الجيم عند العرب

أهو حَلقيّ كما في مصر ام شَجَريّ كما في بلاد الشام

(للاب هنري لامنس اليسوعي)

تلك مسألة خاضت فيها من بضعة اشهر بعض المجلّات المصريّة كالبيان والهلال. ولا نخال الاولى منهما اصابت في قولها « لم نجد مَن نبّه على ذلك ولا تكلّم فيه » لانّ المسألة ليست بمستحدثة فكثيرون من الاوربيين المستشرقين تعرّضوا لها. ونحن ايضاً ذكرناها في احد اعداد البشير (٢٨ حزيران ١٨٩٤)

وليست غايتنا اليوم ان نعود اليها فنوفيها حقّها من البحث. بل جلّ قصدنا ان نريد بعض ملاحظات نستلفت بها انظار رصفائنا الافاضل الى امور اضربوا عنهـا. ونورد في خلالها اهمّ الادلّة على حقيقة لفظ الجيم

واوّل ما نقول ان لفظها الحلقيّ وهو التديم الاصليّ شائعٌ في عصرنا شيوعاً لم يخطر للناس ببال فهو السائد فضلاً عن مصر في بلاد نجد واليمن وعند كثير من قبائل العرب النازلة في ما بين النهرين. ولا تخلو منهُ مرّاكش ففي لغتها عدد من الكلمات تلفظ جيمها حلقيّة (١. فتلك حجّة قويّة توهن اعتراض القائل بان اللفظ الشجريّ هو الشائع الآن بين العرب وكاد يعمّم

ولو فُرض انهُ عامّ فلا يستنتج من ذلك شيء. لانّ كلمات عديدة في اللغات الاوربيّة قد أُبدل اللفظ في بعض حروفها كلّ الإبدال وبعضها لا يزال يتبدّل حتى الآن. فانّ الراء (r) مثلاً لا يمضي علينا الاعوام القليلة الّا اصبحنا لا نسمع في فرنسا من ينطق بها على اصلها. اذ يكاد الجميع ولاسيما في المدن يلفظونها كالغين على طريقة باريس. وهذا الحرف قد أُبدل ايضاً لفظه في المانيا وانكلترة

وزد على ذلك انّ حرف g في اللاتينيّة الذي يشبه لفظهُ الجيم المصريّة كما لا يُخفى قد اصبح يُلفظ كالجيم الشاميّة في كثير من البلدان كايطاليا وفرنسا وبلجكا وانكلترة

امّا لفظ الجيم الشجريّ فانهُ ضيّق النطاق دون ما قدّمنا. لانّ هذا الحرف ما عدا

(١ Reconnaissance au Maroc par le Vte de Foucault, p. 2

لفظهِ الحلقيّ يُلفَظ ايضًا كاليا، في حَضْرَموت وفي بعض نواحي فلسطين وسوريا . وكان يُلفظ ايضًا مثل الكاف والقاف في اليمن (١ . كما ذكر ابن دُريد والمقدسيّ (في الصفحة ٦٦)

ولا يصعب علينا ان نبرهن انَّ اللفظ الحلقيّ ليس هو فقط شائعًا في عصرنا بقدر شيوع الشَّجْريّ بل انهُ اقرب ايضًا الى الاصل . فالمؤرّخون والجغرافيّون من اليونان كثيرًا ما كتبوا عن عرب الجاهليّة : والسَّواد الاكبر منهم مثل أسترابون وبروكوب وسوزومن وايثاغريوس وماكّلا وتيوفان وغيرهم اوردوا امورًا جرت في عهدهم . فاذا ما ذكروا اسماء علم عربية ممَّا يدخلها الجيم استعملوا في التعبير عنها الحرف اليوناني γ وهو كالجيم المصرية . مثلًا : جبّار Γαμβαρος . جبلة الغسّاني Γαβλα . حُجر آكل المرار Αγαρος . جَفنة Γνουφας . ضُجعُم Ζογομος او Ζοκομος . هذا واليونان الاقدمون لم يعرفوا قطّ الجيم الشَّجريّة والمحدثون منهم يجدون صعوبة زائدة في حكاية هذا الصوت فيعبرون عنهُ بحرف z (٢

فلنعكس الامر ولننظر في ما نقلهُ العرب عن اليونانية واللاتينية الى لغتهم . والكلمات من هذا القبيل عديدة . فليس من ينكر ان حرف γ اليونانيّ وحرف g اللاتيني كان لفظهما في كل آنٍ كالجيم المصرية ولم يكن قطّ فيهما مشابهة بالجيم الشامية . فكيف عبّر عنهما عرب الجاهلية ؟ لعمري لو كانوا عارفين بلفظ الجيم الشَّجريّ لاستعاضوا احيانًا عن هذا الحرف بما يقاربه في المخرج كالشين والزاي . على اننا لم نرَهم استعملوا غير الجيم والغين وكلاهما حلقيّ . وهاك بعض الكلمات مع بيان اصلها الذي نقلت عنهُ : بُرْج πυργος او burgus (٣ . بُرْجُد paragauda . سِجلّ sigillum . مَنْجَنيق μαγγανικόν . طَنْجَن τηγανον . سَرْجيس Σεργιος (٤ الخ . وفي كلمات أُخرى عبروا بالجيم عن الحرفين اليونانيَّين κ المجانس للكاف و χ المجانس للخاء . نحو : نَرْجِس ναρκισσος . بَرْجا (٥ τοπαρχια (٦ .

١) وفي اللغة آثار كثيرة لهذا الإبدال مثل مقذاف عوض مجذاف . وقد نبّه على ذلك القلقشندي في كتابهِ صبح الاعشى

٢) ورد في كتابةٍ من القرن الثالث عشر التعبير عن كلمة (jour) الفرنسية بهذه الصورة τζιουρ ٣) burgus ذُكرت في كتابةٍ اكتُشفت بحوران

٤) اسم شهيد ورد في ديوان الاخطل صفحة ٣٠٩ . وهو في لفظ العامّة سركيس

٥) تصحيف لاسم ضيعة ما بين جونية وجبيل ٦) Mission de Phénicie, 326,

ولا يخفى ان لا علاقة بين الكاف او الحاء وبين الجيم الشجرية

هذا فضلًا عن ان الجيم تُبدل في العربية نفسها — بالكاف. نحو: درجات ودركات. جنَّ وكنَّ. — او بالقاف. نحو: جذفَ وقذفَ. جدَّ وقدَّ — او بالغين. نحو: جرجر وغرغر. دَجِرَ الرجلُ ودَغِرَ. دَجنَ ودَغِنَ الخ

فيستدلّ مما تقدّم على ان الجيم حلقية لوقوع التبادل بينها وبين الاحرف الحلقية وهذا التبادل قديم العهد. ومثله لفظ الجيم كافًا. فابن دريد يقول ان لفظها هذا كان شائعًا في اليمن وسائدًا في بغداد

وبقيت آثارٌ للفظ الجيم الحلقية حتى في القرون المتوسّطة. فان علماء ذلك العهد اوردوها في كلمات كثيرة نقلوها عن العرب. نحو: asanguc المشتقة عن الصَّنج و regulus عن رِجْل. وهما اسمان لنجمين. ومنهم مَن عبروا عن الجيم بحرف c اللفوظ كافًا. نحو: doronic (دَرُونَج). cétérac (شيطَرَج). emblic (أَمْلَج)

هذا وان سهل علينا ان نثبت حقيقة لفظ الجيم فلا يتيسّر لنا تعيين الزمن الذي فيه تبدل هذا الصوت فصار شجريًا. فليت شعري عمَّن اخذ العرب هذا اللفظ؟ لمن المقرَّر انهم لم يأخذوه عن جيرانهم وهم يجهلونهُ فان العبرانيين والسوريين والاشوريين والفينيقيين كاليونان واللاتين ليس في لغتهم غير الجيم الحلقية

وقد طرحت مجلة الهلال السؤال نفسه واجابت عليه ان الجيم الشجرية مأخوذة عن قريش. لكنَّ الادلَّة على ذلك قليلة فضلًا عن انها لا تُقنع. فان تكن قريش عمّمت لغتها في كل البلاد التي فتحتها فما بالُ مصر خالفتها بذلك وفيها توطَّن من القرشيين اصحاب عمرو ابن العاص؟ وان قيل «انَّ لفظ اهل القاهرة عارضٌ من امد غير بعيد» قلنا وهل لفظ الجيم الحلقي في ما بين النهرين ونجد ومراكش عارضٌ ايضًا من امد غير بعيد؟

وما اقرب جواب الهلال الى الصواب لو كان هذا اللفظ محصورًا في قسم من القطر المصري. لكننا نجدهُ في اقطار مختلفة تبعد عن مركز اللغة العربية. والافتراض وحده ايًا كان لا يكفي لحلّ هذه المسألة

وقيل ايضًا «ان علماء اللغة في اوائل الاسلام لما ضبطوا لفظ الجيم عيَّنوا مخرجها من الشجر كما يلفظها اهل الشام». فنسأل ما هي هذه مؤلفات علماء اللغة في لفظ الحروف العربية واننا نودّ لو وقفنا عليها. وقد بذلنا الجهد في البحث عن الصرفيين والنحاة الاقدمين

الذين اتصلت الينا آراؤهم فلم نجد لاحدهم كتاباً سبق القرن الثاني للهجرة . وفيه كان قد انتشر لفظ الجيم الشجري كما يستدل من القرائن

ولا نخال الهلال ايضاً مصيباً في استناده على استعمال الجيم في الالفاظ العربية المنقولة الى الفارسية مثل « جهاد وجامع » . لان اللغة الفارسية مستحدثة وهذه الكلمات انتقلت الى الفرس في زمن كان قد ساد فيه اللفظ الشجري

فان رغب الينا سائل وطالب ان نبين تعيين الزمن الذي فيه جرى هذا الابدال من الحلقي الى الشجري اجبنا بكل صراحة اننا نجهل ذلك . امّا اذا كان لا بدَّ من ابداء رأينا في المسألة قلنا ولكن مع التحفظ وليس قولنا الّا من باب الاقتراض : ان الجيم الشجرية ظهرت بنفوذ العجم في البلاد المجاورة لهم في ما بين النهرين والعراق . ولا يبعد انها كانت لغة اهل البلاط في الدولة العبّاسية التي قوي فيها النفوذ العجمي منذ القرن الثاني للهجرة . وكأنما الناس حاولوا التشبه باهل البلاط وسكّان العاصمة . كما ان الجميع في فرنسا يتشبهون بباريس في لفظها ولو سقيماً

هذا ونحن نكرّر القول ان ما ابديناه ليس الّا رأياً نعدل عنهُ متى دلّنا البرهان على مذهب آخر اقرب الى الصواب . انهُ تعالى ضياء المسترشدين

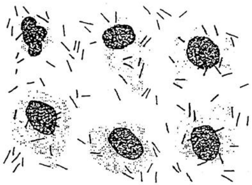
داء السلّ وانتشارهُ في سوريّا

(الدكتور حبيب افندي الدرعوني)

ولا تقل انَّ الصغير عاجزٌ هل يجرح الليث سوى ذُبابِهِ

رذُباب السلّ الذي يلجُ جسم الانسان اصغر من أن تدركهُ العين المجرَّدة فطالما اختبأ عن الابصار لا يُدرى الّا بافعاله ويبارز الروح فيجذبها بخطاطيف السقم والهزال ويقتطف من كل قطرٍ زهرة النساء والرجال

ولمَّا نهض رجال العلم للتنقيب عن ماهيَّة تلك العلَّة انفرد فيهم الفرنساوي ڤيلمين بالقول انَّ داء السل مسبَّبٌ من جرثومة آليّة اذا لقَّحت جسماً سليماً صار معتلاً . ثم جاء على إثرهِ الدكتور كوخ فتسنَّى لهُ ان أماط الستر عن تلك الجرثومة فأبصرها بعين المجهر فاذا بها خطّاً دقيقاً سمَّوهُ باشلّس كوخ باسم مكتشفهِ (كما ترى في الصورة بالصفحة ١٢٠) . ينساب في الجسم فيغتذي على نفقة اعضائه وغالباً ما يختار منها ادقَّها وألطفها واهمَّها لقيام الحياة اعني الرئة فينهشها رويدًا حتى يَنحَل الجسم ويتضعضع من وراء تلك الطّعنات الخفيّة



باشلُّوس او ميكروب السلّ قد لُوِّن هنا بالاحمر وكُبِّر عن اصلهِ ١٥٠٠ مرَّة — امَّا انسجة الرئة التي بها يتكوَّن الباشلُّوس فلُوِّنت بالازرق

وليس هذا فقط بل انَّ ذلك الباشلّس ينمو ويكثر وينتشر في الهواء ويسطو باجسامٍ جديدة فيُلحقها بالتي ثوت في القبور . وربَّما بقي كمينًا صابرًا على مرور الايام الى ان تذرَّهُ عوامل الانتشار او تنقلهُ الى غير أقطار فيفتك باهلها متأثرًا فرائس لهُ يختارها من الاجسام النحيلة فيعلق بها ولا يتركها حتى تطير منها الانفاس .

وهذه بلادنا السورية لقد نشرت عليها تلك العلّة جناحها وتوطّنت فيها من زمانٍ ليس ببعيد اذ انَّهُ لدى الاستطلاع ممَّن لهم معرفةٌ في البلاد يظهر انَّ داء السلّ كان غير معروفٍ في بلادنا الَّا انهُ من عهدٍ قريب أخذ يتفشَّى فيها سريعًا ويفتك في اهل البلاد فتكًا ذريعًا

وقصدنا من هذه النبذة ان نستقري الاسباب التي هيَّأت تفشّي السلّ في اقطارنا كي يتسنَّى للاهلين استدراكهُ والتذرّع بذرائع الوقاية منهُ والَّا لاستمرَّ يسير في ظهرانينا سيرًا حثيثًا ويقتل من الناس اكثر مما تفعل الاوبئة العظيمة . فان الكوليرا مثلًا اذا انتشرت في بلادٍ استفزَّت همَّة الحكومات والاهلين فيعزّزون اسباب قانون الصحَّة والوقاية ويقيمون في وجهِ الوافدة موانع العدوى فيخفّفون وطأتها ويحصرونها في مكان نشأتها . وليس الامر كذلك في السل فكأني بهِ ينازش الناس مناوشة فيفتك بهم واحدًا واحدًا فتكون جملة

الخسائر كثيرة بشرية. وهذه ارقام القوائم تشهد بصحة ذلك . عُدّات ضحيات الحروب من ابتداء هذا العصر الى اليوم فكانت مليونين في فرنسا . وكانت وفيات الكوليرا اربعمائة الف امّا عدد الذين ماتوا بداء السل فيربو على التسعة ملايين . . .

وربما كان تفشّي تلك العلة ناتجاً من جهل الناس امدوى السل وماهية تلك العدوى وناقلها او الاسباب المهيئة لانتقالها سواء كان في البنية او العادات او المعيشة . وتلك امورٌ لا بدَّ ان يعرفها الناس حق المعرفة كي يصدّوا هجمات ذاك المرض فانهُ اذا تمكن في بلادنا ربما وشجت عروقهُ فيعسر في مستقبل الايام قلعها

امّا كون داء السلّ معدياً فذلك امرٌ اصبح مقرّرًا لا يختلف فيه اثنان . وليس في هذه الرسالة مقام لاثبات البراهين العلمية وذكر المناظرات التي جرت من عهد قريب في هذا الشأن عن نوعية السلّ ووحدانية طبيعته ومناظره ولا نشاحن من يقول مع الدكتور بُروسِه ان درن السلّ نتيجة الالتهاب . فتلك مباحث نترك التنقيب فيها الى أئمة علماء هذا الفن . وحسبنا تعريف الاصول العملية التي قرّرتها التجارب لانَّ العمل بموجبها يضمن لنا الوقاية من هجمات السلّ كما يتضح ذلك من هبوط معدل الوفيات بهذا الداء في اوربا منذ عُرفت عوامل العدوى وسعت الجماهير في اتقائها . وهذه قائمة نظّمت في بلاد الانكليز تؤيد ذلك القول : بلغت علة السلّ اشدّها من سنة ١٨٥٨ الى سنة ١٨٦٠ فكان معدّل الوفيات ٢٥٦٥ في المليون . امّا من سنة ١٨٨٩ الى سنة ١٨٩٣ اي بعد ما تقرّرت لدى الخاصّ والعامّ عدوى السلّ ووجوه سيرها واخذت الجماهير ترتب معيشتها بحسب تعاليم فنّ الوقاية لقد سقط اذ ذاك معدل الوفيات الى ١٥١٢ في تلك البرهة اي ٤١ في المئة فتأمّل

واملنا في نباهة مواطنينا ان يستفيدوا من تجارب غيرهم لانفسهم فيعمدوا الى استعمال الذرائع اللازمة لكسر شوكة هذا الداء الذي اخذ يفشو في بلادنا كما سنبيّن

قلنا انَّ داء السلّ يعتري الرئة في الغالب وجرثومتهُ العاملة في إحداث المرض ونقلهِ انّما هي باشلّس كوخ الذي يسبح في نفث المصدورين آلافاً آلافاً فاذا يبست تلك النفثات تطايرت تلك الباشلّسات في جوّ الغرفة او سارت مع الغبار ثم ولجت رئات سليمة فان صادفت فيها ما نسميه قابليّة للمرض من ضعفٍ في الجسم او نحول حلّت هناك وأعطبتها . وان كان الامر كذلك صار لا بُدَّ من إعدام نفث المسلولين وكلّ ما تلوّث بها

الملابس او على الاقل تطهيرها وقد اصبحت هذه الاحتياطات ضربة لازب فتحتم على ذوي التعقل والفطنة

اما دواعي العدوى المختصة ببلادنا عادة فاولها المخالطة ليس فقط تلك التي تضطرها الحاجة بل الاختلاط المأثور في عاداتنا الشرقية

وغير خاف ان الناس في بلادنا يعيشون في البيت الواحد مختلطين فينام اعضاء العائلة في غرفة واحدة ويتنشقون هواء واحدًا واذا أكلوا يغمسون الاصابع في قصعة واحدة وربما أزم الواحد الآخر لقمة أكل نصفها. فلا غرو من ثمَّ اذا نُقلت العدوى لان الابواب مفتوحة بوجهها • ومن هذا القبيل عادة عيادة المرضى فيجتمع الجيران والمعارف زرافات ويدخلون على المريض يتحدثون ويدخنون فيضرُّونهُ بازدحامهم ويسيئون الى انفسهم بتعرضهم لاكتساب المرض. وقد يمكننا سرد حوادث جمة انتشرت فيها العدوى على هذا السبيل نقتصر منها على هذه الحادثة : رجعت منذ عهد قريب امرأة من اميركا وفيها مرض السل اكتنَّهُ في صدرها من تلك البلاد. فلما وصلت ضيعتها ترلت ضيفةً على أختٍ لها تأوي الى بيت واحد وكان لهذه ابنة عمرها اثنتا عشرة سنة. فبعد مرور بضعة شهور تُوفيت الاخت المريضة وفي السنة المقبلة ظهر المرض في الاخت السليمة. ثم ماتت من جرائهِ . اما الابنة الصبية فقد سرى اليها المرض ولا تلبث ان تلاقي حتفها عمَّا قليل. وليس السبب هنا في انتقال العدوى سوى المخالطة

وتلك الامثال اصبحت عديدة منذ حصلت المهاجرة الى القارة الجديدة وذلك لا ريب السبب الاقوى في جلب العلة ونشرها. واي طبيب لم يشاهد ان معظم المرضى الراجعين من اميركا مبتلون بالسل الرئوي

ولا غرو بذلك اذا استقصينا كيف تكون مهاجرة السوريين وكيف يعيشون في تلك البلاد الشاسعة فهم يقضون عيشهم في التقتير والتعب ويفنون قواهم بعدم ايفائها حقها من التغذية اللازمة والراحة الضرورية فينامون جملةً تحت سقف واحد او ربما قضوا ليلتهم تحت القبة الزرقاء. وحملوا اجسامهم فوق طاقتها من الاوقار والاسفار ذلك فضلًا عما يلحق بصحتهم من تأثير البرد والمناخ وعوامل الهم والاهتمام

والهمُّ يخترمُ الجسيم نحافةً ويشيبُ ناصيةَ الصبيِّ ويُهرمُ

فاذا ضعف مزاجهم وانحطت اجسامهم وأصابها ما يُعبر عنهُ الاطباء بالفقر الفيسيولوجي

تهيّأت تلك الاجسام للامراض واخصّها السلّ . وربما كان منبع العدوى من البيوت التي يسكنها السوريون او من الملابس التي تخلع على ذوي الحاجة منهم . واذا ما تمّ سير العدوى فيهم وتتلّك الرض من ابدانهم تكفّلوا من ثمّ بنقله الى بلادهم ونشر جرثيه بين مواطنيهم ولذا تواتر السلّ في بلادنا من يوم بدأت المهاجرة وعاد المهاجرون الى اوطانهم

ونحن نخشى ان يستشري الشر ويسير الداء في هذه البلاد سيرًا سريعًا وينتشر فيها لما يلاقيه من سهولة الانتقال في الداخل بسبب المخالطة والفاقة وفي الخارج لعدم تدبير المدينة او القصبة او الضيعة على سنن القوانين الصحيّة العامّة ونقول بالحري لعدم وجود تلك السنن او مراعاتها وهو الامر المؤلم في غير بلادنا فيتيها كثيرًا من تفشّي الداء الذي نحن في صدده

ومن اهمّ الاسباب في اجتذاب السلّ انحراف بعض شباننا عن محجّة الآداب واقتراف المعاصي واستسلامهم الى داعي الاميال والشهوات فتضنى اعصابهم وتنفد قواهم وتهزل اعضاؤهم فتنتاب من ثمّ اسوارُ الصحة ويتسلّقها ذلك الداء الخبيث . وقد يجدر بنا ايضًا ذكر عادة التقبيل مثل واصل للعدوى ولو كان الامر نادرًا

اما ما ليس بنادر شَغَفُ الناس عندنا بالترف والمفاخرة بالزينة والملابس فتراهم يجوزون حدّ الاسراف بتمويه الظواهر ويذلّون الاعضاء لخواطر الزيّ والمصطلحات فيثبّطون نموّها ويجهلون الخلل في وظائفها وهم مع ذلك يقصّرون عن إيفاء ابدانهم حقوقها من التغذية فيغذونها بقوتٍ ناقص لا يفي بنموّ الجسم وقوام العيش فيكون من ذلك انحراف الصحة وضعف البنية وتغلّب الامراض عليها . فياليت مواطنينا الذين يحدو بهم حادي التشبّه باهل المغرب يأخذون عنهم العادات الحسنة المفيدة للصحة كتفضيل تغذية الجسم وترويضه على تزيينه بالملابس والازياء ويطرحون منها ما يخلّ في الآداب وصحّة البدن معًا (ستأتي البقية)

الاخ (فرا) غريفون وجبل لبنان

في القرن الخامس عشر

(للاب هنري لامنس اليسوعي)

(تابع لما سبق)

٩

وقد اسعد الدهرُ غريفون بانهُ عاش في عهد باباوات وجّهوا كلّهم عنايتهم نحو الشرق

نخص بالذكر منهم اوجانيوس الرابع عاقد المجمع الفلورنتيني ونيقولا الخامس (١ وقبل الجميع كليكستوس الثالث. فان هذا البابا الاسباني كان شغلهُ الشاغل الشرق واصلاح حال المسيحيين الشرقيين. واول اعماله عند ما تبوَّأ العرش مجاهرتهُ بالنذر انهُ يضحّي لهذه الغاية كل كنوز الكنيسة وحياتهُ ان لزم الامر. وكان يقضي الساعات الطوال بمذاكرة الفرنسيسكان الواقفين على شؤون الشرق ولم يكن يملّ من العود الى هذه المسألة. والكتابات الحاوية لاعمال مُلك هذا الحبر الجليل مع قِصَر مدّته تؤلف ٣٨ مجلّدًا ضخمًا. منها قسم كبير قد كُتب في سبيل مساعدة الشرق وكلّها محفوظة بين سجلّات الفاتيكان السريّة (٢. والحقّ يُقال انّهُ لم يكن يكتفي بالقول حاله. حُكي انهُ رأى مرّةً على مائدته مملحة من ذهب فهتف « خذوها للشرق. فمثلها من الصيني تغني عنها »

وفي اول سنة من ملكهِ كتب في ١٤ حزيران ١٤٥٥ الى البطريرك يعقوب الحدثي رسالة سلّمها الى رسوله ابرهيم وبها يشيد في ايمانهِ وغيرتهِ على صالح رعيتهِ الروحي (٣. وفي ١٤٥٧ بعث ايضًا برسالة الى مسيحيي سوريا.

ولا حاجة الى وصف احتفائهِ بغريفون القادم الى رومة حبًّا بخبر الموارنة العزيزين لديهِ. وكأنّ الطبيعة وفقت بينهما اذ جمعت الرسل الفلمنكي بذلك الحبر الشهم الذي ما برحت في عروقهِ حرارة الدم الاسباني رغمًا عن شيخوختهِ. فكنت تراهما وكلاهما ذو عقل واسع وافكار عظيمة لا همّ لهما الّا خلاص الشرق. ولا ريب ان كليكستوس اغتنم ما كان اكتسبهُ غريفون من الخبرة في خلال خمسة عشر عامًا صرفها بسوريا. ويعزّ علينا ان التاريخ لم يحفظ لنا شيئًا من تفاصيل هذا السفر. ولا نعلم في اي سنةٍ كانت رحلة الاخ غريفون الى عاصمة الكثلكة الّا ان مدّة ملك كليكستوس القصير تقضي بانّ ذلك جرى بين ١٤٥٥ و ١٤٥٨

وبعد اعوام قليلة عاد غريفون ثانية الى رومة. فان بطرس الملقب بابن الحسّان كان خلف على الكرسي البطريركي يعقوب الحدثي فجمع سنة ١٤٦٩ اعيان الاكليرس والطائفة المارونية وقرر ان يبعث الى رومة رسائل حاوية عبارة الخضوع للكرسي الرسولي ويطلب

---

١) راجع پستور « تاريخ الباباوات طبعة المانية الجزء الاول ص ٤٤٣. وقد اورد هناك براءة من لاون العاشر الى بطرس بطريرك الموارنة جاء في اولها ذكر رسالة من نيقولا الخامس الى الموارنة ٢) پستور الجزء الاول ص ٨١٥ ٣) الدويهي ٤٠٦

تثبيت انتخابه . وقد وقّع رسالته كل الحضور وتعيّن لحملها غريفون ومعه اثنان من الفرنسيسكان الاخ سمعان والاخ اسكندر (١ . فوصل هذا الوفد الى رومة في النصف الاول من عام ١٤٦٩ (٢

وكان في تلك الاثناء قد خلف بولس الثاني بيوس الثاني وورث عن سلفه الكريم غيرته على نصارى الشرق . فاحتفى اي احتفاء بوفد الطائفة المارونية وامر باجراء الفحص عن انتخاب البطريرك بطرس وصحة عقيدته فشهد غريفون خير شهادة لكلا الامرين . وقد كتب من رومة الى الموارنة الرسالة الآتية (٣ :

« يا اخوتي الروحانيين مكتوب في الانجيل الطاهر ان سيدنا يسوع المسيح قال لبطرس : يا بطرس سألت من اجلك ان لا تنقص امانتك . فارجع وثبّت اخوتك . ولاجل هذا سيدنا بولس بابا رومية نائب المسيح وخليفة ماري بطرس بعثني اليكم لاعلمكم امانته البطرسية واخبره عن امانتكم ان كانت متفقة مع امانته ام لا . ان كنتم معتقدين ان امانته مباركة ام لا . فانا اخبرته انكم متفقون معهُ ومعتقدون اعتقادهُ وطائعون لكرسيه . وهذا ظاهر من ثمان شهادات : الشهادة الاولى ان بطرككم مع المطارنة والخوارنة والقسوس والعلمانيين لما سألتهم بنفسي عن ذلك اجابوني الجواب المذكور وفي يقيني انهم لا يتكلمون بلسانين ولا يجملوني كاذبًا عند بابا رومية . الشهادة الثانية ان في الدنيا فِرَقًا كثيرة من مؤمنين وغير مؤمنين . ونعرف ان الموارنة ليسوا متفقين ومعتقدين مع الغير المؤمنين . ولا مع النساطرة ولا مع اليعاقبة ولا مع الروم . بل يعتقدون ان مذهب هؤلاء ما هو مستقيم وان كانوا يقولون هكذا عن اعتقاد الافرنج فلا يكون رجل عاقل ولا فهيم ولا قديس ولا كتب ولا شهادات صحيحة الّا عند الموارنة . وهذا محال من قبيل انهم فرع صغير ولكنهم اذا كانوا متفقين مع الافرنج فانهم يكونون متفقين مع جماعة كثيرة نشأ منها في كل حين قديسون وعلماء وملوك الخ . الشهادة الثالثة ان بطريرككم ارميا على معرفة من جميعكم سافر الى رومية ودخل على البابا واتفق معهُ في الجمع واعتقد اعتقاده واخذ منهُ التاج

١) الدويهي ٤١٣

٢) راجع الدويهي الوجه ١٣٩ و ٤١٣

٣) قد كان فيما مضى نسخ كثيرة من هذه الرسالة في انحاء لبنان . ووُجد في عهد الدويهي نسخة منها بين سجلات دير قنّوبين بخط المطران جبرائيل القلاعي تلميذ غريفون فرواها في تاريخه ص ٤٠٦ ونقلناها عن عنهُ حرفيًا لأهميتها

والخاتم اشارةً دائمة على الاتفاق المذكور معكم دون غيره . الشهادة الرابعة ان جميع النصارى في المعمودية يقولون يعمد فلان وانتم تقولون مع الافرنج : يا فلان انا اعمدك باسم الآب والابن والروح القدس . الشهادة الخامسة ان جميع الموارنة من الزمان القديم يكرزون لبابا رومية الثابت بالله ولم يكرزوا لغيره من اهل المذاهب الاخرى . والقدماء منكم ما كتبوا هذا الّا لانّهم كانوا متفقين مع بابا رومية ومعتقدين اعتقادهُ . الشهادة السادسة ان البطرك ماري ارميا المذكور ويوسف مطران مار اسيا وتاودورس اسقف كفرفو وكثيرين من الكهنة وشعب الموارنة ووكلاء جميع شعبكم نزلوا الى طرابلس امام قاصد بابا رومية وامام اناس كثيرين هناك اعترفوا ان في السيد المسيح ارادتين وهما متحدتان ومتفقتان لا مختلطتان وممتزجتان ولا متفرقتان ولا منفصلتان بل متحدتان الخ . الشهادة السابعة ان الموارنة في بلاد الافرنج ورودس وقبرس وطرابلس وبيروت والقدس الشريف من الزمان القديم الى اليوم يدخلون كنائس الافرنج ويقدسون على مذابحهم في حللهم وقرابينهم . ويرفعون الجسد والدم مثلهم . ويرسمون الصليب على وجوههم مثلهم . ويعترفون ويتقربون عندهم ويقبلون هديتهم مثل التاج وغيره الخ . الشهادة الثامنة مذكور في كتاب اقليميس ان السيد المسيح قال لبطرس : يا بطرس اذا رأيت العلم صادرًا من قاعدة رومية فاعلم ان الخلاص قريب من شعبك . ومن قبل اليوم تمّ وكمل هذا الكلام . لانهُ يوجد في بلاد الافرنج تحت طاعة بابا رومية الوف وربوات من المعلمين وكثير من القديسين الذين انفقوا اعمارهم في العمل والمطالعة واورد الدين والاعتقاد الخ . ولاجل هذا البطريرك ارميا وكهنته وشعبه الموارنة من قبل هذا الوقت بمائتين وخمسين سنة اتفقوا واعتقدوا مع الافرنج وبطاركة كثيرون بعدهُ كما في زماننا البطريرك يوحنا الجاجي وبعده الى اليوم السيد البطرك بطرس الساكن في دير قنوبين . ونسأل الله ان تكونوا متفقين ومعتقدين هكذا ويصدق ما قلتهُ فيكم لسيدنا بابا رومية »

فمن هذه العبارات الاخيرة يُستدَلّ انّ غريفون كان للموارنة نصيرًا عظيمًا في رومة . وبمساعيهِ أُجيز لهم المحافظة على بعض الطقوس الشرقيّة كما سبق القول (١

١) ورد في رسالة من الاب فرنسيس سوريانو حارس الاراضي المقدّسة الى البابا لاون العاشر ان الموارنة لا يمتازون عن اللّاتين الّا « ببعض طقوس خاصّة بكهنة الشرق قد اثبتها الكرسي الرسوليّ جريًا على ما طلب الاخ غريفون »

ولما عاد الى لبنان حمل الى رأس الطائفة المارونية رسالة من البابا بولس الثاني يقول فيها انهُ وصلهُ كتاب البطريرك المنبئ بغيرته على حفظ الايمان الصحيح بين أبناء رعيته. كما أيد ذلك كلام المرسل الفرنسيسي. وقد ضمَّن الحبر الاعظم رسالتهُ شروحاً عن بعض مسائل تختص بالعقيدة ليس تحتها اليوم كبير امرٍ واختتمها بتثبيت بطرس على الكرسي البطريركي وتحريضه على ان يتلقَّى التعليمات من غريفون ورفقائه ويعمل بمشورتهم كأنها جميعها صادرة منهُ نفسه. والرسالة مؤرَّخة من رومة في شهر آب سنة ١٤٦٩

وذهب بعض المؤرّخين الى ان البابا لم يكتفِ بما منح غريفون من السلطة بل اقامهُ بطريركاً على الموارنة.

هذا ولم يخلُ لنا ثلاث سنوات منذ كنَّا نبحث في مكتبة البولنديستيين ببروكسل عن اخبار الشرق في تواريخ مجموعة هنالك قلَّ نظيرها في اوربَّا. فما اعظم ما كان اندهاشنا اذ عثرنا بين تواريخ الرهبانيَّة الفرنسيسيَّة بما يفيد تعيين المرسل الفلمنكي بطريركاً على لبنان فرأينا في ذلك الامر من الغرابة ما استدعى نظرنا فيهِ والبحث عن صحَّتهِ وكان ذلك اوَّل ما حملنا على كتابة هذه المقالة

وممَّا يزيد الامر غرابةً ان الموارنة كانوا وقتئذٍ قد انتخبوا لهم بطركاً وغريفون كان هو عينهُ حاملاً البراءة المؤذنة بتثبيت انتخابهِ. ومع ذلك فالمؤرّخون جميعهم الَّا ما ندر اوردوا الامر كأنهُ واقع حقيقةً

ومرجع شهاداتهم كلّها مع كثرتها الى اصل واحد فانَّهم نقلوا الخبر عن المؤرّخ الفرنسيسي وَدِنغ

امَّا نحن فنردُّ على ما رواهُ وَدِنغ برواية غلاسبرغر الفرنسيسي المطبوعة حديثاً في ايطاليا (١. فهذا الكاتب الالماني دخل الرهبانيَّة سنة ١٤٧٢ فكاد يعاصر غريفون. وروايتهُ بقيت خطيَّة ملقاةً حتى يومنا في زوايا النسيان فلم يقف عليها وَدِنغ ليستعين بها في تأليفهِ

فنبذتهُ عن غريفون قد حوت على اختصارها اموراً جوهرية وقد اعتمد غلاسبرغر في ايرادها على ما جاء في كتابات الفرنسيسيين الصاحبين لغريفون او اللاحقين بهِ الأدنين. فتراهُ يصف مساعي غريفون الجيدة ويعظّم اعماله لكنَّهُ لا يروي شيئاً عن تبوئهِ

١) في المجموعة المسمَّاة: Analecta Franciscana

كرسيّ البطريركية . فإضرابهُ عن ذكر ذلك دليلٌ واضح على انّ لا صحّة لهُ

والاولى بنا ان نقول ما قال كوارِسميوس وقد اعترض على رواية ودِنغ فقال بعد ما اشار اليها « ان قول ودِنغ ليس سوى مبالغة لاظهار فضل غريفون في تعليم الموارنة والعناية بامر خلاصهم »

هذا واننا نرتئي انهُ حدث تغيير في حال هذا المرسل الكريم عند عودته من رومية فانهُ رجع الى لبنان حائزًا على وكالة رسميّة وسلطة متّسعة . وفي رسالة بولس الثاني الى البطريرك اشارة الى ذلك كما سبق القول . ويؤيد هذا الرأي ان البابا سِكستوس الرابع بعد موت غريفون سنة ١٤٧٥ ارسل الى رئيس الفرنسيسكان العامّ يوصيه ان يبعث الى لبنان احد ابناء رهبانيّته بصفة نائب الكرسي الرسوليّ . وقد قام بهذه المهمّة الفرنسيسكان دون سواهم حتى اواخر القرن السادس عشر حيث قام غيرهم بهذه الوظيفة لدى الموارنة

فمن المقرّر اذن انّ غريفون كان سبّاقهم الى هذه الرتبة السامية في لبنان . ولسائلٍ يطلب أيا تُرى هل سمي اسقفًا ام لا؟ نقول ان المؤلفين اجمعوا على الجواب بالايجاب ونحن لا نخالف لهم رأيًا . ولعلّهُ كان اسقفًا يدبّر شؤون اللاتين في هذه البلاد ويقوم لدى الطوائف الشرقية مقام القاصد الرسوليّ في عصرنا . فهو اول من قام بأعباء القصادة التي لم يتقرّر انشاؤها بصورة نهائية الّا في اوائل القرن الحاضر

ولا ريب انّ المؤرخين الغربيّين نظروا الى ما حازهُ غريفون من السلطة الطائلة فتوهّموا انهُ سمّي بطريركًا على الموارنة . فهذا رأينا في ما حملهم على ايراد مثل تلك الرواية الغريبة امّا الدويهيّ فقد ذهب الى انّ غريفون كان في واقع الحال بطريركًا على اورشليم لا على الموارنة . لكننا لسنا ندري على ايّ دليل استند هذا المؤرخ الجليل في روايته هذه . وعلى كلّ لو فرضنا ذلك فلا يصحّ ان يكون غريفون بطريركًا على اورشليم الّا شرفًا لانّ البطريركيّة اللاتينيّة لم تتجدّد في المدينة المقدّسة الّا بعد منتصف القرن الحالي . بل لا يمكن مثل هذا الافتراض لانّهُ في مدّة اقامة غريفون بلبنان كان الكردينال بِسّاريون الشهير (١٤٤٩ــ١٤٧٢) هو صاحب لقب البطريرك الاورشليمي وخلفهُ فيه لويس الاوّل ذو هَرْكُور الذي مات سنة ١٤٧٩ (١

(ستأتي التتمة في العدد الآتي)

---

١) راجع في تاريخ البطريركية الاورشليميّة على اللاتين مقالة وردت في مجلّة الاراضي المقدسة (Das heilige Land.) سنة ١٨٩١ ص ٣٦

كتاب تاريخ بيروت

(تابع لما قبل)

ويُستدلّ على قِدَم بيروت من قِدَم صيداء وصور لمجاورتهما لهما. ويقال انّ صيداء رابع مدينة عُمّرت بعد (٧) الطوفان (١. وذكر ياقوت الحموي في كتاب معجم البلدان (٢ قال: قال هشام عن ابيهِ: انما سمّيت صيداء باسم صيدون بن صدقاء بن كنعان بن حام ابن نوح (اه). وصيداء وصور مذكورتان في التوراة. وصور بمفردها مذكورة في الانجيل (٣. ووجدت في بعض الكتب انّ سليمان بن داود عليهِ السلام تزوّج بنت صاحب صيداء وانّ بصيداء صيدَ الحوت الذي ابتلع خاتمهُ فسمّيت صيداء (٤. قال الملك المؤيد صاحب حماة (٥ في كتاب تقويم البلدان (٦: انّ صور اقدم بلدٍ بالساحل وغاية حكماء اليونان منها (٧. قال صاحب كتاب مناهج الفكر: كان في صيداء هيكل لعُطارِد وفي صور هيكل للمرّيخ وكانت الصابئة تعظمهما. وقد ذكر بعض اصحاب التواريخ القديمة ان ساحل الشام خُرّب في عهد بخت نصر (٨. وعُمّر في دولة الفرس. والدليل على ذلك ان خروج بخت نصّر على الشام في دولة لُهراسَف احد الاكاسرة بفارس وذلك بعد وفاة موسى عليهِ السلام بتسعمائة وتسعين سنة وقبل مبعث النبي (صلعم) بالفين ومائتين وتسعين سنة فدخل بنو اسرائيل تحت طاعتهِ بغير قتال. وبعد توجُّههِ عنهم غدروا بهِ فرجع

---

١) قد ترجّح الآن عند علماء التاريخ انّ بيروت اقدم من صيداء (Baron d'Eckstein Journ. Asiat. 1859, II, 419)

٢) في المجلّد الثالث الصفحة ٤٣٩ (ed. Wustenfeld)

٣) والصواب انّ لكلا المدينتين ذكرًا في التوراة والانجيل معًا (راجع مثلًا مرقس ٧: ٢٤)

٤) قصة خاتم سليمان من الاقاصيص التي لا يعبأ بها ذوو الانتقاد والتبصرة. امّا اسم صيداء فالارجح انّهُ أُخذَ من الصيد لانّها كانت مقامًا للصيّادين وهي مشهورة بسمكها الى اليوم

٥) هو السلطان ابو الفداء المتوفّى سنة ٧٣٢ ﻫ (١٣٣١ م)

٦) في الصفحة ٢٤٢ (ed. Reinaud)

٧) ويروى في النسخة المطبوعة: وعامّة حكماء اليونان منها. وفي هذا الكلام غلوّ ظاهر

٨) يريد نبوكدنصّر الثاني وهو الذي غزا سورية وفلسطين ودمّر مدنهما. وحاصر صور حتّى افتتحها عنوةً في آخر القرن السابع قبل المسيح

اليهم واباده واخرب القدس (١ . وقصد صور فوجّه اهلها امتعتهم في البحر فغُرّقت السفن وحاصر صور فاخذها وقتل حيرام صاحبها وخربها وخرّب بعض مدن الساحل (٢؟) وتوجّه الى مصر وبلاد المغرب . وبقي بيت المقدس خرابًا سبعين سنة الى ان تملك اردشير بهم احد الاكاسرة واسمهُ بالعبرانية كورش (٢ فامر بعمارة القدس ومدن فلسطين وغيرها من مدن السواحل . ثم بعد خروج بخت نصر باربع مائة وخمس وثلاثين سنة (٣ ظهر الاسكندر اليوناني وقهر الاكاسرة وتملك على بلادهم . وكانت صور عامرة فحاصرها واخذها واجرى اليها الماء . وبقيت مملكة اليونان مائتين واثنتين وثمانين سنة وكرسيّ ملكهم الاسكندرية (٤ . ثم خرج اغسطس الرومي وهو اوّل من تلقّب بقيصر وقهر اليونان وتملك وبقيت السواحل بيد الروم الى مبعث النبيّ (صلعم)

فصل في معرفة طول بيروت وعرضها

قال بطلميوس (٥ : بيروت طولها ثمان وستون درجة وخمس واربعون دقيقة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وعشرون دقيقة طالعها العوّاء (٦ بيت حياتها الميزان (٧ . قال صاحب الزيج : طولها تسع وخمسون درجة ونصف وعرضها اربع وثلاثون درجة (٨ وهي من الاقليم

١) راجع سفر الملوك الرابع الفصل ٢٤ و٢٥ وسفر اخبار الايام الثاني الفصل ٣٦

٢) والصحيح انَّ كورش غير اردشير واسم كورش من الفارسية القديمة قيل انَّ معناه فيها الشمس . وكورش هو الذي اصدر الامر برجوع اليهود الى اورشليم سنة ٥٣٦ ق م وامَّا اردشير وهو المعروف بارتحشتا او ارتكزرسيس الطويل فانهُ كان بعد ذلك بزمان (٤٦٥ — ٤٢٥ ق م) وهو الذي ابرز الحكم في بناء اسوار اورشليم في السنة العشرين من ملكهِ (نحميا ٢ : ١)

٣) والصواب بمائتين وثماني وعشرين سنة

٤) لا يخفى ان مملكة الاسكندر تقسَّمت بعد وفاتهِ اقسامًا منها دولة اليونان البطالسة في مصر واياها اراد المؤلف هنا . ودامت هذه الدولة منذ ملك بطليموس الاول سوتير الى انتصار اغسطوس قيصر ٢٧٦ سنة (٣٠٦ — ٣٠ ق م)

٥) قد نقل المؤلف قول بطلميوس وصاحب الزيج عن كتاب معجم البلدان للحموي (١٠ : ٧٨٥)

٦) العوَّاء هو المنزل الثالث عشر من منازل القمر

٧) الميزان اسم احد البروج الاثني عشر

٨) لا يخفى انَّ الطول هو ابتعاد المكان عن موضع معلوم تمرُّ بهِ دائرة الهاجرة ابتداء . وفي تعيين هذا الموضع اختلاف كبير فالفرنسيُّون اتخذوا باريز والانكليز غرينويش . وكان

الرابع(١ . قال الملك المؤيد في تقويم البلدان : بيروت من الاقليم الثالث . وقل ايضاً في تقويم البلدان عن طول بيروت ثلاثة اوجه وعن عرضها ثلاثة اوجه وكل وجه بسَنَد :

	الوجه الاول	الوجه الثاني	الوجه الثالث
الطول	نط نه (٥٩° ١٥′)	نط ل (٥٩° ٣٠′)	نح م (٥٨° ٤٠′)
العرض	لج ك (٣٣° ٢٠′)	لد ه (٣٤° ٥′)	لج ك (٣٣° ٢٠′)

(قلتُ) قد حرَّرنا عرض بيروت بآلات الرصد فوجدناهُ ثلاث وثلاثين درجة واثنتين وخمسين دقيقة . واما الطول فقد تعذَّر علينا ادراكهُ

فصل في ذكر فتوح بيروت وهو الفتوح الاوَّل

ذكر النويريّ باسنادهِ الى ابي الحسن بن الاثير في حوادث سنة ثلاث عشرة (للهجرة ٦٣٥ للمسيح) قال : لمَّا استخلف ابو عبيدة يزيدَ بن ابي سفيان على دمشق سار يزيد الى صيداء وبيروت وجبيل وعِرقَة . وعلى مقدَّمتهِ اخوهُ معاوية ففتحها فتحًا يسيرًا وخلَّى كثيرًا من اهلها وتولَّى فتحَ عِرقَةَ معاويةُ بنفسهِ في ولايته . ثمَّ غلب على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عُمَر واوَّل خلافة عثمان رضي الله عنهما ففتحها معاوية . ثمَّ رمَّمها وشحنها بالمقاتلة . وقد رأيت في كتاب فتوح الشام انَّهُ في سنة ستَّ عشرة عند استيلاء المسلمين على السواحل وتقرير الجزية عليهم دخل اهل بيروت في التقرير (٢

القدماءَ يبتدئون بالطول من ساحل بحر اوقيانوس الغربي . وكان بعضهم يبتدئ بهِ من سَمْت الجزائر الخالدات . ولهذا ربَّما وُجد في الكتب انواع من الطول . وطول بيروت اذا اعتبرنا سمت باريز هو ثلاث وثلاثون درجة وسبع دقائق في شرقيها . واذا ارجعنا طولها الى سمت غرينويش فيكون خمساً وثلاثين درجة وتسعاً وعشرين دقيقة

امَّا عرض بيروت اي بعدها عن خطّ الاستواء نحو الشمال فثلاث وثلاثون درجة واربع وخمسون دقيقة فيكون رَصْد المؤلف هو الاقرب الى الصواب ما بين الاقدمين

١) لمن المعلوم ان الاقدمين كانوا يقسمون الارض الى سبعة اقاليم موقعها ما بين خطّ الاستواء الى القطب الشمالي لكنهم اختلفوا على موقع ابتدائها وانتهائها . ولذا ترى ان البعض حسبوا بيروت من الاقليم الثالث والبعض من الرابع

٢) جاء في حاشية الكتاب : الذي دخل في تقرير الجزية المذكورة من ساحل عسقلان وقيسارية وصود وبيروت . وذلك سنة ست عشرة للهجرة على يد الصحابة رضوان الله عليهم

ثمَّ صار المسلمون يتكاثرون فيها والروم يقلُّون منها وقتاً بعد وقت حتى صار اكثر اهلها مسلمين. وقد خرج منها خلق كثير من اهل العلم منهم «الاوزاعيّ» وهو ابو عمرو عبد الرحمن بن عمرو (١ امام اهل الشام وعالمهم قيل انَّهُ اجاب في سبعين الف مسألة وصار يُعمَل بمذهبهِ في الشام نحو مائتي سنة. وآخر من عمل بمذهبهِ احمد بن سليمان بن جَندلم قاضي الشام. وعمل اهل الاندلس بمذهبهِ اربعين سنة (٦) ثمَّ تناقص بمذهب الامام مالك على يد عبد الرحمان بن معاوية بن هشام الأُمويّ. وكان الاوزاعيّ عظيم الشأن بالشام وكان امرهُ فيهم اعزّ من امر السلطان. أسند عن جماعة (٢ من التابعين واسند عنهُ من العلماء جمٌّ غفير. وقد جعلتُ لهُ كتاباً يتضمَّن ترجمتهُ واختصرتُ ذكرهُ هاهنا. وكان مولدهُ ببعلبكّ سنة ٨٨ (٧٠٧م) وقيل ٩٣ (٧١٢م) للهجرة ومنشأهُ بالبقاع ونقلتهُ امّهُ الى بيروت فرابط بها (٣ الى ان مات سنة ١٥٧ (٧٧٤ م) بكرةَ يوم الاحد لليلتين بقيتا من صَفَر وقيل في شهر ربيع الاول. ومنهم «محمَّد ولد الاوزاعيّ» كان عابداً قانتاً وكانَ يُظَنّ فيهِ انهُ من الأبدال (٤ عاش بعد ابيهِ عشرين سنةً. ومنهم «عبد الغفَّار بن عثمان» (٥ صهر الاوزاعيّ. ومنهم «الوليد بن مَزْيَد العُذريّ» البيروتيّ كان من اهل العلم والرواية أسنَد عن جماعةٍ كثيرة وأسند عنهُ جمٌّ غفير. مولدهُ سنة ست وعشرين ومائة (٧٤٤ م) ومات سنة ثلاث ومائتين (٨١٩ م). ومنهم ولدهُ «ابو الفضل العبَّاس بن الوليد البيروتيّ» كان من خيار عباد الله ومن اهل العلم والرواية مولدهُ سنة ١٧٩ (٦ (٧٩٤ م) ومات سنة ٢٧٠ (٨٨٤ م). ومنهم «امُسهِر (١ البيروتيّ». ومنهم «عبدالله بن اسمعيل بن زيد بن صخر البيروتيّ». ومنهم «محمَّد بن عبدالله بن عبد السلام بن ايُّوب البيروتيّ (٧ ابو عبد الرحمان المعروف بِمكحول الحافظ» كان ثقةً مأموناً من اهل العلم والرواية واسند عن جمٍّ غفير وروى عنهُ خلقٌ كثير وهو الحافظ المشهور بين الناس مات سنة عشرين وقيل سنة احدى وعشرين وثلاثمائة (٩٣٢ او ٩٣٣ م)

(ستاتي البقية)

---

١) راجع ترجمتهُ في تراجم الاعيان لابن خلكان الجزء الاول الصفحة ٤١٥ من طبعة مصر او ٣٨٥ من طبعة باريس. وقد نقل المؤلف عنهُ معظم هذه الترجمة

٢) قوله «اسند عن جماعة» يريد انهُ روى عنهم واخذ الحديث باسانيدهِ

٣) اراد بالمرابطة انقطاعهُ الى الزهد والعبادة

٤) ارادوا بالابدال قوماً من الاولياء الصالحين قيل لهم ذلك لانهم يتناوبون فلا تخلو الدنيا منهم اذا مات واحد منهم قام بدلَهُ آخر

٥) وسمَّاهُ ياقوت الحموي في معجم البلدان (١ : ٧٨٦). عبد الغفَّار بن عفان

٦) وفي معجم البلدان (١ : ٧٨٦): سنة ١٦٩

خريدة لبنان

(للاب هنري لامنس اليسوعي)

(تابع لما قبل)

٤

فما تمالك الرجل ان اندفع الى خارج الدار كأنَّ بهِ مسًّا وصاح بصوت اليأس : ربَّاه أَو ماتت هي ايضًا ? انيسة ماتت ? ويلي فاني لا اسمع غير هذا الجواب « مات . ماتت » ولستُ اجد في بلادي من يعرفني ولا ترمقني عين صديق.

قال هذا واخذ يمشي على غير هدًى يوسع الخُطى ولا يدري اين يؤدّيه المسير. فما كان منهُ الّا ان وصل بعد هنيهةٍ الى المقبرة بجوار الكنيسة . فنظر مليًّا الى منازل الاموات وهو واجم ثم تنهَّد الصُعداء وقال بصوتٍ خافت : هنا عند خروجنا من الكنيسة قامت معي انيسة على قبرامّي وعاهدتني انها تثبت على ودادي وتصبر الى يوم رجوعي . فقبلتْ عربونًا مني صليب فضّةٍ . . . ما انكد حظكِ ايتها الفتاة . انا سافرتُ الى دار الغربة وانتِ انتقلتِ الى عالم الاموات . فلم يسعدني دهري بان اجتمع بكِ بعد مرّ الفراق . . . وما ادراني اني لستُ قائمًا على قبركِ ادوس ثرى لحدكِ ?

فما اتمَّ هذا الكلام حتَّى خارت قواهُ فسقط على بلاطة ضريح وقد بلغت روحهُ التراقي . ثم اجال طرْفًا عليلًا في اكناف المقبرة فساءَهُ حالها اذ رأى كلَّ قبر فيها عبارة عن ركام حجارة . وتمنّى لو جرت في بلدهِ عادة استحسنها في الاقطار الغربية وهي ان تنصب الامُّ صليبًا على ضريح ولدها رمزًا الى الرجاء . ويشيّد الابن فوق تربة والديهِ اثرًا يعلن برَّهُ بهما ويزيّن الصديق لحد صديقهِ بالرياحين والزهور دليلًا على حفظ الوداد . وكان قبل سفرتهِ وهو حدثٌ يتردّد الى المقبرة ليزور رمس والديهِ ويقدّم الصلاة لراحة نفسيهما . فلم يعد يهتدي اليوم بعد رجوعه الى قبريهما

وكانت المقبرة ساعتئذٍ قفرة لم يزرها احد عند الهاجرة فخلا لهُ الجوّ لبثّ شكواه وبعث نفثات الصدر وسجم الدموع السخينة . وفيما هو على تلك الحال يفكّر في زوال هذه الدنيا واهوال الموت وغوامض الابدية اذ طرق مسامعهُ وقعُ اقدام . ولم يكن القادم سوى الحفّار الشيخ قد جاء حاملًا مجرفة ومعولًا وكانت هيئتهُ الرثّة تنبئ على فقرهِ وصروف

الزمان قد حنت صُلبهُ وأشمطت رأسهُ شيبًا وجعّدت وجههُ الَّا انَّهُ لم يزل بعدُ بريق النشاط يلمع في عينيهِ

فلما وقعت عين المسافر على هذا الشيخ الاعرف منهُ خصمهُ القديم فارسًا عبودًا وهمَّ ان يطير اليهِ لولم يثبطهُ عن مرامهِ ما نابهُ من الفشل الى ذاك الحين فلزم مكانهُ ليرى ان كان يعرفهُ فارس

فوقف الحفار على بُعد خطوات منهُ . وتأمَّلهُ برهةً ثمَّ اخذ يرسم في الارض شكلًا مربعًا مستطيلًا ليحفر هناك قبرًا جديدًا . ولم يكن عملهُ ليشغلهُ عن مُسارقة النظر الى الغريب فما لبث ان لاحت على وجههِ أمارات سرور مُنكَر

فظنَّ المسافر انها بشائر الفرح بلقاء عشير الصبا . فخفق فؤادهُ طربًا وعلل النفس بان فارسًا يُسرع اليهِ ويناديهِ باسمهِ

امَّا الحفَّار فوجَّه اليهِ نظرة الحقد والسخريَّة ومدَّ يدهُ الى ما وراء ظهرهِ تحت عباءتهِ التي شدَّ ذيلها الى وسطهِ واخرج حبلًا اعقد من ذَنَب الضبّ فزاد فيهِ عقدة وقد بدت عليهِ ملامح الفوز حتى ان الغريب نهض ودنا منهُ وسألهُ منذهلًا :

— ماذا تفعل ؟

قال الحفَّار : هذا يعنيني . قد طال انتظاري حتى نفد صبري وهذه العقدة لحسابك

فصاح الغريب بفرح : اذن تعرفني

— ومن أعرَف بك منّي أوَ أنسَ خصمًا رماني يومًا في الساقية . ولولا القليل لغرقني عن حسد لانَّ انيسة ابنة الصبَّاغ كانت تفضّلني عليهِ . . .

— انت ؟ تفضلك عليَّ انيسة ؟ لا صحَّة لما تدَّعي

— لاشكَّ في قولي . وهل نسيتَ يا حسود انَّها حفظت كل السنة تذكارًا مني جلبتهُ لها من مار الياس فاتيتَ وترعتهُ من صدرها ؟

فقال الغريب بلهجة من الحزن : فارس دعنا من احاديث الصبا ولا نذكرنَّ ما مضى ولكن صدّقني انَّ قلب انيسة لم يمِل قطّ اليك . وان قبلتْ هديّتك فلأنَّها من مزار مار الياس ولئلاَّ يسوءكَ إباؤها . وانا كنت وقتئذٍ في عنفوان الشباب تلعب الخيلاء برأسي فلم أحسن ملاطفتك لها . ولكن هل يليق بنا ان نُثير مكامن الاحقاد بعد عشرين سنة مضت فافنت خلائق برمّتها . انت وحدك عرفتني أفتكون لي عدوًّا لدودًا . ألا بحياتك هات

يدك فأصافحها وننسى ما مضى ونقضي ما تبقّى من العمر في وفاق وإخلاص واعلم انَّ لديَّ وسائل استطيع بها ان أُخفف عنك مشاقَّ الحياة

فنكص الحفّار بفظاظة وقال بصوت اجشّ: انا انسى ما مضى ؟ . لا انساهُ ابد الابدين. لات حين وفاق فانك نغّصت عيشي . . . ماكان يمضي يوم الاَّ ذكرتك فيه وهيهات ان اذكرك بخير وانت سبب شقائي

فلطم المسافر خدّيه وصاح : الهي الهي الحقد وحده يعرفني والبغض وحده لا ينسى ولا يموت

فقال الحفّار ساخرًا : حملتك الاقدارُ الى هنا لكي تجتمع باهلك الذين ماتوا. ليطمئن بالك دبّرت لحنّا الطويل قبرًا نعمًا القبر . فسأدفنهُ ان شاء الله عند حائط الكنيسة بقرب الميزاب حتى يصبّ عليه ماء السطح ويطهّر نفسهُ الاثيمة

فوثب الغريب عند هذا الكلام الذي خرق فؤاده كالسهم وامتقع لونهُ وتطاير من عينيه الشرر. بيد انهُ لم يكن الاَّ اسرع من ارتداد الطرف حتى ثاب اليه وقارهُ وسكن جأشهُ وباحت نار غضبه فقال متنهدًا : انك تأبى مصافاة اخ ردّهُ الله بعد عشرين عامًا وماكان سلاحك عليه الاَّ السخرية والاهانة. أفارسُ انَّ ذا لفعل ذميم . لكنني أغضي على القذى واصفح عن السيئة. فقل لي اين قبرا والديَّ فقد طال بي البحث ولم اهتدِ اليهما

فقال الحفّار بصوت حاكى همهمة النمر : لا اعرف . فاني منذ عشرين سنة حتى اليوم حفرت اكثر من مرّة في المكان الواحد وبثرتُ ما في القبور من العظام

فكان لهذا الكلام وقعٌ انكى من الحسام في قلب المسافر فهاجت فيه الافكار وماجت وبقي مدّةً مطرقًا خافتًا. اما الحفّار فعاد الى عمله ولكن بتراخٍ كانهُ اضطرب لسوء صنيعه نحو الغريب. والحقّ يقال انَّ فارسًا لم يكُ برجل سوء. فما لبث ان عاد الى نفسه وراعهُ ما ثار في قلبه من عوامل الانتقام وداخلهُ الندم على ما فرط منهُ في حقّ انسان كان لهُ عشيرًا في صباه. فزفّ الى خصمه الكئيب نظرةً يستشفُّ منها الحنوّ ثمّ دنا اليه بهدوء وامسك بيده وقال لهُ بسكينة : يا صاحبي حنّا. سامحني فاني اسأتُ اليك . ولكن لو كنتَ تعرف ما قاسيت بسببك

فصافح الغريب يدهُ وصرخ : دع يا صاح ذكر ما مضى . فانّ جوارحي تهتزّ طربًا لمجرّد تلفظك ايّها العزيز باسمي انا الغريب. وهاك نسيتُ منذ الآن ما فرط منك من الكلام

وقد عمل في قلبي ما لم تعمله السهام. قل لي ناشدتك الله اين قبر أنيسة فاروية بدامعي.
ولا بدعَ انها تفرح في الملا اذا رأتنا نتصالح ونتآخى عند مدفنها

— مدفنها ؟ يا ليتها أُدرجت في لحدها فتكون استراحت من الحياة

— فهي إذن حيّة ؟ انيسة بعدُ في قيد الحياة ؟

— بئس الحياة وقُل بالاحرى موتاً

— كلامك قطّع كبدي أفدني بربّك ما حلّ بها ؟

— أنها عمياء.

— انيسة عمياء . . . . ربي ما هذا المصاب. ولا يعود يشخص اليّ بصرها

قال ذلك بصوت يفتّت الجلمود وخرّ على الارض متلاشياً . . . ولمّا عاد اليه بعض الرمق الحّ في السؤال فاجابهُ الحفّار: انها عميت منذ عشر سنين وهي الآن تدور على ابواب المحسنين تتسوّل. وكلّما ساعدني الله اعطيتها بعض دريهمات. ولا تخبز خبزةً الّا وأفردنا لها حصّتها

فوثب المسافر وضمّ فارساً الى صدره وهتف: اشكرك الف شكر . وجازاك الله خيراً على ما احسنت اليها وسأكافئك ان شاء الله عنها فانا غنيّ من فضـل الله ولست انسى معروفك. فأخبرني رحم الله اجدادك اين هي فأطير اليها وانشلها من وهدة الشقاء.

فاشار الحفّار بيده قائلاً: هناك قرب البيت المغطّى بالقرميـد الاحمر. ذاك البيت الصغير. وفيه يسكن سركيس الحائك مع عائلته وانيسة ساكنة معهم

٥

فما سمع المسافر هذه الكلمات الّا اندفع كالسيل مارّاً في وسط بنايات الضيعة حتى وصل الى بيت الحائك . . . وما هذا البيت سوى عبارة عن سافات من الحجر الاصمّ غير المنحوت تكاد لا يتخللها ملاط قد قامت كالجدران فاستند اليها سقفٌ من جذوع الصنوبر بارزة الاطراف يعلوهُ طبقة من التراب والنحاتة. وفوق الكل اسطوانة يعرفها العامّة بالمحدلة ولا نظنّ سطحاً من مساكن لبنان القديمة يخلو منها وهناك مصطبة قد ضربت فوقها بعض الدوالي قبّة خضراء. وقامت الى جوانبها اصناف من البقول والرياحين كثر في خلالهـا الحبق. وكان بالقرب صبيّ لا يتجاوز السادسة من عمره مع ثلاث بنات اصغر منـهُ وكلّهم يلعبون حُفاةً تسترهم بعض أسمال الثياب وهم مكشوفو الرأس غير مبالين بحرّ الشمس

وكانوا اذ ذاك يجعلون في الارض حفرًا يغرسون فيها اغصانًا متطوعة ويحملون اليها الماء في كسر ابريق او جرّة من فخار

فلما بصرت البنات بالغريب اطرقت كل منهنّ حياء وهي تنظر خلسةً الى هيئته وزيّه امَّا الصبي فحدجه ببصر غير هيّاب تدلّ نظراته على بعض الدهشة والفضول

ولم يكن المسافر لتلهيهُ المناظر او يتوقف في سيره بل زفَّ الى الاولاد ابتسامةً وولج المنزل حيثما وجد ربَّ البيت جالسًا الى نوله يحيك وامرأته في زاوية تنزل الحرير وكلاهما لم يزالا في مقتبل العمر تلوح عليهما لوائح القناعة والرضى بحالهما. وكل ما حولهما يدلّ على انهما امتازا بالنظافة وحسن الترتيب

فلما فاجأهما الغريب عراهما الانذهال لاوّل وهلة فتركا شغلهما وبادرا اليه اعتقادًا منهما انهُ ضلّ سبيله فوافاهما يطلب ايضاحًا. فتلطفا بدعوته للجلوس لكنَّهُ قال لهما بصوت يتلجلج : هنا ساكنة انيسة حسُّون ؟

فوقعا في حيرةٍ عند هذا السؤال وتبادلا نظرةً لا توصف وقد منعهما فرط الدهشة عن الجواب. ثم عاد الحائك الى نفسه فاجاب : نعم يا سيدي. انيسة ساكنة هنا. لكنها خرجت منذ ساعة. فهل ترغب في مواجهتها ؟

فهتف المسافر : ترى اين هي الآن. أليس من سبيل الى ان تحضر في الحال ؟

— هذا صعب يا سيدي فانها خرجت مع بنتنا الصغيرة روزا في دورتها الاسبوعية لكنها ترجع بلا ريب بعد ساعة. فانها ما تأخرت ولا مرّة. تفضَّل فاسترح. ربما تكون تعبان

— اسمحا لي بانتظارها هنا

فاسرعت المرأة الى خزانةٍ واخرجت منها مسندًا وسجّادة والحّت على الغريب ان يستريح عليهما. فتأثر هذا ممَّا صادف من الحفاوة به وجلس مستأنسًا. فكشف القبعة عن رأسه واخذ يمسح جبينه المكلّل بالعرق وقد سكن ما جاش في نفسه من الجأش

وكانت المرأة قد اشارت الى بناتها فبادرت احداهنَّ الى العين تستقي ماء باردًا وانقلبت هي مع الصغيرتين على اضرام النار واعداد النارجيلة والقهوة. امَّا الحائك فقام بين يدي ضيفه كأنَّهُ ينتظر اوامره او يفكر في عمل كل ما من شأنه ان يشرح صدره ويسرّهُ. ولا يخفى ان اهل لبنان اشبه الناس بالعرب في حسن الضيافة

(ستأتي البقيّة)

كتب شرقية جديدة

Das arabische Strophengedicht von M. Hartmann.
I Das Muaššaḥ, *Weimar*, 1897, 258 SS.

فنون الشعر العربيّ للدكتور مرتين هرتمان — القسم الاوّل : الموشّحات

كنّا قد بحثنا في الطبعة الاولى من تأليفنا الموسوم بعلم الادب في فنون الشعر العربي المتّصلة بالبحور الستّة عشر او الجارية على ألسنة العامّة. ثم توسّعنا في هذا الموضوع في الطبعة الثانية حتّى بلغ عدد صفحات هذا الفصل عشرين صفحة وختمنا بقولنا انّ للمغنّين من العامّة والموقّعين على آلات الطرب ضروبًا أخر كثيرة غير ما ذكرنا لعلّهم اهتدوا اليها بنفسهم او اخذوها عن الشعوب المجاورة لهم لكنّها لم تتقيّد حتّى اليوم »

والآن قد اتحفنا العلّامة الفاضل الدكتور هرتمان ترجمان بيروت سابقًا بالقسم الاوّل من تأليف مطوّل يبحث فيه عن هذه الفنون عينها بحثًا شافيًا. وقد افرد هذا الجزء من كتابه لذكر الموشّحات صنّفهُ باللغة الالمانيّة. وهو في الحقيقة أوسع وادقّ ما كُتب حتّى اليوم في هذا المبحث المفيد. وقد قسّمهُ صاحبهُ جازاه الله خيرًا الى ثلاثة فصول ذكر في الاوّل منها تاريخ مائة واثنين وثلاثين شاعرًا نظموا في فنّ الموشّحات وقد اورد اسماءهم وتراجمهم على حروف المعجم مستندًا الى كتب كثيرة لم يزل قسمٌ منها مخطوطًا. وفي الفصل الثاني عدّد المؤلف الانواع المختلفة التي ورد عليها نظم الشعراء. فوجد ما ينيف على مائتين وثلاثين نوعًا يزيد بذلك تصرّفات الكُتّاب في تغيير الاجزاء. والتفاعيل وتفنّنهم بالأدوار واللوازم. امّا الفصل الاخير فكلّهُ فوائد ومدارهُ على تاريخ الموشّحات وقد بيّن فيه المعلّم هرتمان من هو الواضع لهذا الفنّ وكيف تداولتهُ الايدي فانتشر في انحاء المشرق والمغرب واظهر ما بينهُ وبين بعض فنون الشعر الاوربي في القرون المتوسطة من العلاقة والتشابه. وكلّ هذه ابحاث جليلة كنّا نودّ لو يخوض فيها الشرقيّون توسيعًا للفائدة بعد ان مهّد لهم طرقها الوعرة الدكتور هرتمان انارنا الله زمنًا طويلًا باضواء علومه ل. ش.

فهرست المسكوكات المحفوظة في المكتبة الخديوية

Catalogue of the Arabic Coins in the Khedvial library,
by S. Lane-Poole, 384 pp.

ان المكتبة الخديوية بالقاهرة فضلًا عن ثروتها في الكتب العربيّة المطبوعة والخطيّة

هي غنيّة ايضاً بمسكوكات ونقود الخلفاء والسلاطين من الدول الاسلامية مع نزر يتعلق بملوك مسيحيين . ويبلغ ما هو محفوظ فيها نحو ثلاثة آلاف قطعة جمع معظمها رجرس بك الانكليزي مدّة اقامته الطويلة بمصر . واقتنتها بعد وفاته سنة ١٨٨٤ الحكومة المصريّة اجابةً لطلب دولتلو يعقوب ارتين باشا . وقد عُهدت منذ ثلاث سنوات قراءة هذه المسكوكات وترتيب وطبع فهرست لها الى العلّامة ستانلي لين پول الشهير بهذا الفنّ . فاكبّ على العمل وجدَّ فيه حتى انهاه في السنة الغابرة . وقد اهدى الينا جناب الاستاذ الدكتور موريتس مدير المكتبة الخديوية نسخة من هذا الكتاب الجليل وهو مطبوع بلندن يشتمل على ٣٨٤ صفحة ويبتدئ بوصف المسكوكات الذهبية والفضية والنحاسية المضروبة في دولة الخلفاء الامويّين فالعبّاسيّين فدولة بني الاغلب في افريقية وبني طولون في مصر وسورية وبني الإخشيد في مصر وفلسطين والفاطميّين والايوبيّين والمماليك ودولة سلاطين بني عثمان العظام . وأتبع ذلك بوصف مسكوكات بعض الدول التي تملكت في الاطراف كالامويّين في الاندلس والموحّدين والمرابطين وبني مَرين في افريقية وبني سامان في بلاد فارس والغزنوية في الهند ومن ملكوا في سورية وما بين النهرين من بني حمدان والقرامطة وبني عُقيل وسلاطين آل سلجوق والاتابكة ثم دولة المغول التي امتدَّت سطوتها من بحر الصين الى البحر الروميّ . ووصف ايضاً مسكوكات بعض الملوك المسيحيّين في صقلّية والقدس

وذيَّل الكتاب بفهرسين مرتّبين على حروف المعجم سرد في الاول منهما اسماء الخلفاء والملوك الذين ورد في الكتاب وصف مسكوكاتهم وفي الثاني اسماء المدن والبلدان التي ضُربت فيها مع ذكر تاريخ السنة

امّا الطريقة التي اتّبعها العلّامة لين پول فهي انهُ اثبت لكل من المسكوكات الكتابة العربية المرقومة على وجهها وقفاها . اما تاريخ ضربها فذكره بالرقم الهندي واسم المدينة التي ضُربت فيها بالحروف الافرنجية واورد بعض ملاحظات باللغة الانكليزية . واشار عند مسيس الحاجة الى المسكوكات الموجودة في المتحف البريطاني بلندن او في المكتبة الوطنية بباريس مع تعيين عددها تسهيلاً للمراجعة . وكل مَن لهُ إلمام بفنّ التاريخ واعترضت في سُبُله الصعوبات لمعرفة سنيّ الحوادث التاريخية يفهم ما لهذا الكتاب من جزيل الفائدة فيقدره قدره ويوفي حضرة المهتمّ بطبعه حقّه من عميم الشكر وطيب الثناء . ا ص .

اجوبة

على ما سبق من السؤالات في العدد الثاني

١ نجيب من سألنا عن اصل ملوك المجوس انّ الآراء في ذلك قد تعدّدت فقال قوم انّهم كانوا من الكلدان لعلمهم بامور الفلك وظواهر الجوّ. وقال آخرون انّهم اتوا من فارس كما يُستَدَلّ على ذلك من تسميتهم بالمجوس. وذهب غيرهم انّهم اتوا من الحبش. وعندنا انهم كانوا شيوخاً من العرب لهم الحكم في قبائلهم. والبراهين التي تحملنا على ايثار هذا الرأي على سواه هي هذه. اوّلاً انّهُ هو الرأيُ الاقدم في الكنيسة واليهِ ذهب الآباء الاوّلون منهم في القرن الثاني للمسيح القديس يوستينوس (في مباحثته مع تريفون). وترتوليان (في كتابه ضد اليهود ف ٩ وضدّ مرقيون ك ٣ ف ١٣). وفي القرن الثالث القديس قبريانوس (في عظتهِ على كوكب المجوس). وفي الرابع القديس ابيفانيوس (شرح دستور الايمان عد ٨) والقديس يوحنا فم الذهب (في العظة الثانية على شرح متّى). وهو الرأي الذي رجّحهُ بعدهم كثيرون نخصّ منهم في الاعصار المؤخّرة الكردينال بارونيوس والاب بتريزي. ثانياً ويؤخذ من نفس الكتاب انهم كانوا من العرب لانهم يقولون لهيرودس انّهم رأوا نجم المسيح في الشرق. والشرق (بالعبرانيّة קדם) اكثر ما تستعمل هذه اللفظة في الاسفار الكريمة للدلالة على بلاد العرب حتّى صار العرب يُدعون بالشرقيين (Sarraceni) وجرى هذا الاستعمال في اللغات الاوربية نفسها (Sarrasins). ثالثاً انّ الهدايا التي اتى بها المجوس تنبئ على جنسهم العربيّ لاسيَّما اللُّبان والمرّ وهما اخصّ ما كان يتّجر بهِ العرب (راجع سفر التكوين ف ٣٧ ع ٢٥). وقد اتحفت ملكة سبأ سليمان بذهب بلاد العرب واطيابها (اخبار الايام الثاني ف ٩ ع ٩). وكان المسيح قد وُعِد بهذه الهدايا المجلوبة من جزيرة العرب فقال اشعيا (٦٠: ٦): كلّهم يأتون من شبأ حاملين ذهباً ولباناً. وقال داود النبي (مز ٧١): ويؤدّون اليهِ من ذهب شبأ. رابعاً وفي بلاد العرب كان بلعام تنبأ بظهور كوكب يعقوب (سفر العدد ف ٢٤) فبقي ذلك عندهم كتقليد متواتر الى زمن المسيح. خامساً والى العرب اشار داود النبي في المزمور ٧١ وكلهُ ينطبق على المسيح فقال: «ملوك شبأ وسبأ يقرّبون لهُ العطايا». وكلا الاسمين يدلّ على شعوب العرب. هذا وان العرب كان لهم العلم الواسع في معرفة الانواء وحوادث الجوّ وان لم يبلغوا شأو الكلدان في ذلك وامّا اسم المجوس

فانهُ كان عند العبرانيين مرادفاً لحكماء. ولا احد ينكر على العرب حكمتهم وقد شهد عليها الكتاب مراراً (ثالث ملوك ٤ : ٣٠ باروك ٣ : ٢٣) . وذكر بورفير ان فيثاغورس رحل الى جزيرة العرب ليأخذ الحكمة عن اهلها (ك ١٠ لقيرلس الاسكندري ضد يليان) ل. ش.

٢ طلب الينا ان نصف ماهيَّة الكينيمتوغراف وبما ان هذه الآلة ليست سوى الفانوس السحري الذي اضيفت اليهِ تحسينات مهمَّة لزم قبل الكلام عليهِ ايضاح تركيب الفانوس المذكور الذي هو من جملة اختراعات الاب كيرخر اليسوعي الشهير

اعلم ان هذا الفانوس مركَّب من صندوق خشبي وفي موخرهِ الداخلي مرآة مقعرة من آنُك (تنك) صقيل لامع وقدّامها مصباح وامام المصباح عدستان من بلور احد وجهيهما محدَّب والآخر مستوٍ وملتصقتان بنوع ان الوجهين المحدَّبين يتجهان الواحد الى الآخر. وبعد العدستين محل المرئي توضع فيهِ زجاجة عليها صور مرسومة بتصوير الشمس او بالوان مختلفة وبعد الزجاجة عدسة بلور محدَّبة توضع على بُعد معيَّن من الصورة في اسطوانة ذات ثقب مستدير ولهذه الاسطوانة آلة تمكن من تقريبها او تبعيدها لتكون الصورة في بؤرة العدسية فيكون الرسم الصادر عنها مكبَّراً واضحاً جلياً. فالصندوق المهيأ كما وصفنا يُقام في قاعة مظلمة على مسافة من نسيج ابيض ممدود وموتَّر ترتسم عليهِ الصور. فاذا اريد استعمال الفانوس السحري يوقد المصباح بنور شديد الضياء كالنور الكهربائي او النور الاوكسيدريك(١). فالمرآة التي وراء المصباح تعكس نوره على العدستين المتضمتين فتلمَّان الاشعة وتجمعانها على الصورة التي قدامهما فتضيء بنور ساطع. ثم ان الصورة تنفذ من العدسية المحدَّبة فترسم مكبَّرةً على النسيج الابيض الممدود. فالحاضرون في القاعة المظلمة لا يرون الصندوق ولا نور المصباح الذي ضمنهُ بل الصورة المجهَّرة المرسومة على النسيج فيتخيل لهم ان ذلك فعلٌ من السحر

اما الكينيمتوغراف فهو فانوس سحريٌّ أُتقن صنعه واكمل لكي تنظر فيما يرسمهُ ليس فقط صور الاجسام بل حركاتها ايضاً. واسمهُ مركب من لفظتين يونانيتين κινημα وفي الاضافة κινηματος اسمٌ بمعنى الحركة ومن γραφω فعلٌ ومعناه رَسَم. فالمراد اذاً بالكينيمتوغراف رسم الحركات. وهذه الآلة تُري الناظرين على النسيج صورة الاجسام مع حركاتها المختلفة. فتشاهد الجنود مثلاً يزحفون فيحركون تارة الرجل اليمنى وتارة اليسرى ويهجمون على العدو وينكصون الى الوراء ويستلُّون السيوف ويضربون بها ويردُّونها الى

١) يحصل النور الاوكسيدريك بتوجه مجرى اوكسيجين وغاز النور او ايثر على قطعة من الطباشير

غدها الى غير ذلك من الحركات فيتخيل للناظر انهُ يحضر القتال في ساحة الحرب . والبلوغ الى هذه الغاية تؤخذ بتصوير الشمس وبالسرعة المطلوبة ١) رسوم الاجسام في حركاتها وتصور على صفيحة ثمَّانة طويلة لينة من قدد السلُّولويد(٢ . ثم تلفُّ هذه القدد على مطوى وتوضع في الفانوس السحري ويدار المطوى بدولاب فتمرّ قدد السلولويد والصور المرسومة عليها تجاه العدسية المحدبة بسرعة عظيمة لكي تظهر الحركات متواصلة ولكن مع انقطاع واحتجاب سريع ايضاً للغاية بين الصورة والصورة لئلا تختلط صور الحركات بعضها ببعض . فترسم الصور مكبرةً على النسيج وينظر الحاضرون الاشخاص والاجسام مع كل الحركات التي كانت لها عند اخذ رسمها بالتصوير الشمسي فيسرّون ويبتهجون . ولكن قد يحدث ان ينقلب الفرح الى حزن والضحك الى عويل كما حدث في سوق الشفقة بباريس في السنة الماضية . فلا يزال يذكر القرَّاء ان شرارةً طارت من مصباح الكينيمتوغراف فكانت سبب الحريق الهائل الذي التهم تلك البناية باقل من عشرة دقائق وذهب بحياة كثيرين من الاكابر والسيدات الشريفات فبكى العالم كله لهذه الفاجعة ١ . ص .

٣ً اماً جوابنا لمن سألنا ما هو الداعي لاتخاذ كانون الثاني لرأس العام الجديد فهو انَّ الرومانيين كانوا يقسّمون قبل يوليوس قيصر سنتهم الى عشرة اشهر ذات ٣٠٤ ايَّام . فلمَّا ملك قيصر زاد عليها شهرين كان اوَّلها كانون الثاني وجعل اوَّل العام في غرَّتهِ وسماه يناير (janvier) باسم بعض آلهة الرومان المسمَّى جانوس (Janus) وكان هذا الاله يُعَدُّ كالهِ البواكير ويكرَّم في مقدَّمات الامور واسمهُ يدلُّ على ذلك والرومان يدعون اوَّل الشيء ومدخله جانُوَا (janua باب) . فارادوا من ثمَّ ان يتخذوا هذا الاله لمفتتح سنتهم . فلمَّا جاءت النصرانيَّة حافظت على عوائد الرومان المدنيَّة ولم تغيّر فيها شيئاً . لا بل وجد النصارى داعياً خصوصياً للمحافظة على هذه العادة وهو وقوع عيد ختانة الربّ في ذلك اليوم لان الختانة هي التي نظمت المسيح في سلك شعب اسرائيل ورشَّحتهُ لرتبة المخلص ل . ش .

٤ً جوابنا لمن سأل ما هي المؤلفات الاوربيَّة عن شمالي سوريَّا ان الكتب في هذا الموضوع

---

١) يمكن ان يؤخذ بتصوير الشمس اكثر من خمسين صورة مختلفة في الثانية . ويلزم لاجل الكينيمتوغراف ان يؤخذ على الاقل ستّ صور في الثانية . مثلًا اذا رفعت في ثانية من الزمان يدي من الفخذ الى علوّ الراس يلزم ان تصوَّر يدي في حركتها هذه ستّ مرات على الاقل في الثانية لانهُ اذا كان ما بين الرسم والرسم اكثر من عُشر الثانية فالحركات في اعادتها عند مرور الصورة في الكينيمتوغراف لا تظهر متواصلةً بل متقطعة فتفقد الفائدة

٢) celluloïd

كثيرة . ولكنَّ اهمَّها تأليف ڤيتال كوينه عن تركية اسيا الجزء الثاني (ولاية حلب) . وهو مصنَّف حسن للجغرافيا الوصفية ولمعرفة السالنامة الّا انَّهُ قليل الفائدة لرسم البلاد . ولا يستغنى لمعرفة رسم شمالي سوريَّة عن تأليف الدكتور بلنكنهُرن باللغة الالمانية . ومن المصنَّفات الجليلة من هذا القبيل عدَّة مقالات أُودعت في العشرين مجلَّدًا من مجلَّة الجمعية الفلسطينيَّة الالمانيَّة . والجغرافية العمومية لأليزه رِكلو (الجزء التاسع وهو مخصَّص باسيا الغربيَّة) — والقاموس الجغرافي المطوَّل الذي انجزهُ المسيو ڤيفيان دي سان مرتين الخ . فبمساعدة هذه المصنَّفات يتمكن الكاتب ان يعرف بعض المعرفة ما يختصّ بشمالي سوريَّة ه . ل .

اسئلة واجوبة

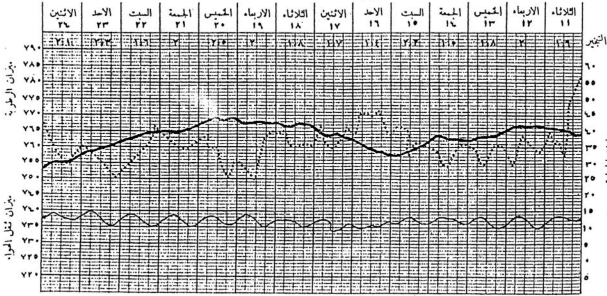
١ سألنا الدكتور جرجي افندي باز عن المرض المعروف بـبْرَيْت هل ينتقل الى الاولاد بالارث واذا كان الامر كذلك فما هي الطريقة لوقايتهم منهُ

نجيب انَّ مرض بْرَيْت (وهو التهاب الكُلى يعرفهُ الفرنج باسم néphrite دُعي كذلك باسم الدكتور Bright) ليس هو من الامراض المنتقلة بالإرث وانَّما اذا كانت بِنْيَة الابوين ضعيفة فيمكن ان يكون في الولد قابليَّة لهذا المرض

٢ وطلب الينا الخواجا عيسى اسكندر معلوف (في اثناء مقالةٍ أدرجها في جريدة لبنان بنسبة انتقادنا على كتيّبهِ الموسوم بالكتابة) ان « نتحفهُ بالمآخذ التي رأيناها في صفحتي ٤٥ و٤٦ من تأليفهِ »

جوابنا على هذا السؤَال بانَّ هاتين الصفحتين من الكتاب المذكور تحتويان عدَّة امور مردودة منها اوَّلًا تقسيم اللغات الى مُرتقية وغير مرتقية وهو تقسيم لا يبيّن شيئًا من كُنه اللغات . ثانيًا ليس بصحيح ان اللغة الاشوريَّة التي كُتبت بالحروف الإسفينيَّة هي من اللغات الآراميَّة . وانما اللغات الآرامية قد خلفت اللغة الاشوريَّة . ثالثًا لا نعلم ما هي هذه اللغة « الانباريَّة » التي ذكرها المؤلّف . رابعًا قولهُ ان اللغتين القرطجنيَّة والفينيقية يتفرَّعان من العبرانية ليس بسديد والصحيح ان العبرانيَّة كانت لغة الكنعانيين الجبليّين والفينيقيَّة لغة سواحل فينيقية ومنها اللغة القرطجنية . ولم « تُعفَ اثارهما من عالم الوجود » كما زعم بل قد جمع منها العلماء كتابات كثيرة اكتُشفت منذ سنين . خامسًا ومن اغرب الامور زعم المؤلّف انَّ اللغة الحبشيَّة تتفرَّع عن العربية الخ الخ . هذا الى اقاويل كثيرة لا يسمح هنا ضيق المحلّ ان نعدِّدها وسنعود ان شاء الله الى هذا البحث في بعض اعداد المشرق ل . ش

قائمة للآثار الجوية من ١١ الى ٢٦ كانون الثاني ١٨٩٨



انَّ الخطّ الضخم (▬) يدلُّ على ميزان ثقل الهواء المعروف بالبارومتر – والخط الرفيع المتابع (—) على ميزان الحرارة (ترمومتر) – امَّا الخطّ المنقّط (....) فهو دليل على ميزان الرطوبة (هغرومتر) – والاعداد الدالَّة على درجات ثقل الهواء تدلُّ ايضًا اذا حُذف منها عدد المئات على درجات الرطوبة — وقد عُيّن مقدار الماء المتحوّل بخارًا في ٢٤ ساعةً بالسنتمترات وعُشر السنتمترات